مكتبتنا
WWW.MAKTBTNA2211.COM

الطبعة الثانية

رواية

192

باتجو

http://www.maktbtna2211.com

أيام مصرية قديمة .. وعصرية أيضًا

Ahmed Mady

يوسف معاطي

الدار المصرية اللبنانية

عامًا مع الكتاب والقراء

مكتبتنا
WWW.MAKTBTNA.COM

بانجو

أيام مصرية قديمة - ومصرية أيضًا

" إذا نظرت إلى المشهد لشعرت أن مصر كلها هاربة من واقع أليم .. الفقراء هاربون من انقطاع الرزق والأمل، والظلم والطغيان، والأغنياء هاربون بما استطاعوا أن ينهبوه من كدّ هؤلاء الفقراء .. هؤلاء في قوارب متهالكة منهارة غارقة بالتأكيد ، إلا أن يشاء الله، وتصل إلى أي شاطئ .. والأغنياء في مراكب فخمة قوية تعلم جيدًا الشاطئ الذي سترسو عليه".

بين الخيال والواقع ، خيط رفيع ، قد يظهر أحيانًا في تشابه الأحداث ، أو يختفي تحت ستار اللامعقول ، وتبقى الحكاية بأحداثها ونتائجها تصل الماضي بالحاضر عبر نسيج حكائي شيق، يستشرف أدق العلاقات بين مدلول الأشياء.

* الأستاذ يوسف معاطي كاتب ساخر يعرفه قراء الصحف والمجلات .. ويستمتع بأعماله الكوميدية مشاهدو التليفزيون ورواد السينما والمسرح.

* وقد أصدرنا له من قبل مجموعة من كتبه في الأدب الساخر، أشهرها: الفن وأهله .. عفاريت .. صايع بالوراثة.. كلام أبيح جدًا ..وهي كتب متميزة حازت إقبالاً من القراء في مصر والبلاد العربية.

* من أشهر مسرحياته الكوميدية: حب في التخشيبة.. الجميلة والوحشين.. بوبي جارد .. بودي جارد .. بهلول في استامبول .. لألا بلاش كده .. وهي مسرحيات ناجحة قام ببطولتها كبار نجوم الكوميديا.

* كما كتب العديد من قصص وسيناريوهات الأفلام السينمائية الكوميدية أشهرها: رمضان مبروك أبو العلمين حمودة .. حسن ومرقص .. طباخ الريس .. التجربة الدانمركية.. عريس من جهة أمنية.. السفارة في العمارة .. الواد محروس بتاع الوزير.. باتخب باتقب .. حاتخب وتقب.

* كما ألف عددًا من المسلسلات الناجحة التي كان لها أثر كبير داخل المجتمع العربي مثل: يتربى في اليوم الأسود ..الخ.

23
مكتبة جرير
JARIR BOOKSTORE

الدار المصرية اللبنانية

6 222006 324575

مكتبتنا
WWW.MAKTBTNA.COM

رواية

باتجو

أيام مصرية قديمة - وعصرية أيضًا

يوسف معاطي

الدار المصرية اللبنانية

مكتبتنا
WWW.MAKTBTNA.COM

بلا مقدمات ...

نخش في الموضوع

يا للا

مكتبتنا
WWW.MAKTBTNA.COM

الفصل الاول

قبل العاصفة .. أي عاصفة .. تتلبد السماء بالغيوم وتتوارى الشمس وتنسحب من المشهد السماوي في هدوء .. وتركض السحب في الفضاء كقطيع من الحملان يطاردها ذئب جائع .. كل هذا يحدث كمقدمة موسيقية لسيمفونية ضخمة تعزفها الطبيعة .. ثم تبرق السماء فيبدو البرق كعصا مايسترو مهولة ترتفع فجأة أمام الأوركسترا بعد دقيقتين للتنبيه على حامل النوتة .. ثم ترعد السماء في ضربات قوية متلاحقة مخيفة ثم بعدها تنزل قطرات من الماء تزيد بالتدريج .. فأول الغيث قطرة لينهمر بعدها المطر الغزير وتنهال السيول ..

ما أرحم السماء بنا ؟!. كل هذا التمهيد لكي تمطر ؟!.

وقبل الأعاصير .. يثور البحر من بعيد .. وتزيد سرعة الأمواج وهي آتية نحو الشاطئ كعاشق متيم لم ير حبيبته منذ ألف عام .. وتتلاحق ضربات الأمواج على الشاطئ .. كل مرة أقوى من التي قبلها .. ثم بعد كل هذا يأتي الإعصار .. جبالًا من الأمواج تنهار عند الشاطئ ..

مكتبتنا
WWW.MAKTBTNABRIS.COM

وقبل الزلازل .. تشعر الحيوانات والطيور أولًا فتصهل الخيل وتنبح الكلاب .. وتتحرك الطيور في هياج وعصبية .. إنها اللحظة التي يعلم فيها الحيوان ما لا يعلمه الإنسان .. إشارات وعلامات كلها تقول كلمة واحدة .. الزلزال قادم .. فاستعدوا .

وقبل البراكين .. تأن الأرض .. وتبكي .. فيسمع الناس صوت بكائها وغليانها والذي لا يسمع يرى خيطًا طويلًا من الدخان يخرج من جوفها ثم تتصاعد الحمم تدريجيًّا إلى أن ينفجر البركان ثائرًا .. وديوان البركان لا يبدأ إلا بالمقدمة .

إن كل شيء في هذا الكون يُعلن عن قدومه قبل أن يجيء ..

فالطبيعة لا تحب أن تفاجئنا .. الكون كله يستأذن في البداية .. يطرق الباب قبل الدخول ..

إن الطلق الذي تشعر به المرأة قبل أن تضع وليدها ما هو إلا طرقات إلهية .. يستأذن فيها القادم إلى الدنيا قبل أن يجيء ..

والنظرات الزائغة التائهة المودعة في عيون الراحلين عن الدنيا .. مؤشرات وعلامات لا تُخطئ ، تؤكد أنهم يشعرون بالموت قبل مجيئه ، ونحن كذلك نشعر أن الدنيا كلها تتكاتف لدق أجراس الإنذار .. وتنبيه البشر .. فالبوم والغربان حينما تنعق يعرف الناس أن شيئًا سيئًا سيحدث ، ولذا ما أرق البوم أو الغربان بنا .. فلولا نعيقها المشئوم لكانت الصدمة وكانت المفاجأة المروّعة .. إن نقل الخبر السيئ أسوأ

مكتبتنا
WWW.MAKTBTNABBIS.COM

من الخبر نفسه .. ولذا يتفنن ناقلوه في تدريجه والتمهيد له .. بل إن الجملة العربية لا تبدأ إلا بالمبتدأ .. ثم يأتي الخبر فيستقيم المعنى ..

إلا .. فيما يختص بالمماليك !!.

بلا مقدمات .. بلا تمهيد .. وفجأة .. تشتعل المعركة في قلب الشارع وتخرج السيوف من أغمادها .. ويبدأ التراشق بالسهام والحراب وكرات اللهب .. تجز الأعناق بلا رحمة .. وتسقط الرؤوس منفصلة عن الأجساد .. تلقى الجثث والأشلاء في الطرق .. ويسقط الضحايا من العوام الذين أتاهم الموت فجأة .. دون تمهيد ودون ذنب اقترفوه .. والمعركة برغم أنها بين مماليك الأمير بيدرا ومماليك الوزير ابن السلعوس .. إلا أن أكثر ضحاياها ليسوا من مماليك هذا أو ذاك .. غالبيتهم من عامة الشعب البسطاء الغلابة الذين لم يقترفوا إثمًا سوى أنهم خرجوا من بيوتهم في هذا اليوم الأسود ليبحثوا عن لقمة العيش .. ولم تكن هناك أي شواهد تدل على أن شيئًا سيحدث .. لم تنعق بومة ولا غراب .. لم تبرق السماء ولم ترعد .. كان يومًا عاديًا مثل كل الأيام .. شمسه رائعة .. وهواؤه جميل .. وكان المماليك على خيولهم يمرون في شوارع القاهرة .. بملابسهم البديعة وقد مشى أمام الموكب من يفسح لهم الطريق .. وكان العامة والسوقة والغوغاء يتفرجون عليهم ويشيرون لهم .. أما أصحاب الحوانيت فكانوا يغلقون حوانيتهم بسرعة ويجلسون أمامها وقد أخرج كل منهم شيئًا من بضاعته واضعًا إياه أمامه .. فكثيرًا ما كان

مكتبتنا
WWW.MAKTBTNABBIS.COM

المماليك يحبون اقتناء هذه الأشياء البديعة التي يصنعها العوام .. ولأن المماليك يملكون السيف والسلطة .. كان أصحاب الحوانيت يقدمون لهم ما يريدون في صورة هدية أو قرابين ليأمنوا شرهم .

نظر المملوك وهو راكب فوق فرسه إلى تلك العباءة الحريرية الحمراء الموشاة بالقصب فرحًا .. سعيدًا بها .. ثم أخذها خطفًا من صاحب الحانوت وقال له :

- حلوة عباءة فالاد .. لون أحمر جميل .

- دي هدية متواضعة مش قد المقام يا سيدي .

- فين لون كحلي فالاد .. أنا عاوز كمان لون كحلي ..

فقال صاحب الحانوت بخوف :

- حاضر سيدي .. بكرة أما تعدي عليا أكون مجهزهالك .

وانهال المملوك بيديه على قفا صاحب الحانوت ضاحكًا :

- أنا ييجي بكره يكون عباءه كحلي موجود فالاد .

ومضى الموكب وصاحب الحانوت يحمد الله أن الموكب مر بسلام .. ولم يكن المصريون يتضايقون كثيرًا من رزالة المماليك في هذه المواكب .. فقد صار هذا أمرًا واقعًا يحدث كل يوم .. والعقلية المصرية تتعامل مع الظلم الذي يتحول إلى أمر واقع على أنه شيء معتاد لا يدعو إلى الشكوى .. فالأمر في النهاية لا يزيد على عباءة حريرية أو صينية

مكتبتنا
WWW.MAKTBTNABBIS.COM

حلوى أو خوذة حديدية أو درع .. مجرد مسائل بسيطة تافهة لا توقف مسيرة الحياة ..

وحينما توقف مماليك الأمير بيدرا عند حمام سنقر .. وهو أحقر الحمامات المملوكيـة في ذلك الزمان .. خرج سنقر لهم وانحنى وقبَّل الأرض .. فقال له المملوك :

- نحن مماليك الأمير بيدرا أمير عظيم فالاد ..

فقال سنقر :

- وأنا خدام الأمير بيدرا ومماليك الأمير بيدرا يا سيدنا .

فقال المملوك :

- فالاد سنقر .. إيش عندك تعطيه للمملوك .

- ده حمام يا سيدنا .. معندناش غير المية السخنة والليف والبشاكير ..

- فين عطور فالاد ؟!. حمام قذر ما فيه عطر ؟!!.

- جاهزة يا سيدنا .. هي دي تفوتني .. اتفضل .

ويقدم له سنقر زجاجات العطر فيأخذها المملوك .. ويظل سنقر يتملق المملوك ويجامله .. ويقدم له فروض الطاعة والولاء ..

- ما تيجي أروقلك القفا يا سيدنا .. وأنتف لك حواجبك ولا تغطس لك غطسة عندي في الحمام وتتدلك وتتكيس وتطلع من عندنا آخر روقان .

وبينما كان سنقر يحاول كسب ود المملوك .. تصاعد من الداخل صوت حماره بانجو وهو ينهق.

مكتبتنا
WWW.MAKTBTHABIS.COM

- ما هذا فالاد سنقر ؟!!

- ده بانجو يا سيدنا .. الحمار .. أكيد عرف إنك هنا وحب يرحب بيك وإذا بالحمار بانجو خارجًا وقد ابتل بالماء .. نظر نحوه المملوك وأخذ يضحك .. وما أن رأي بانجو المملوك جالسًا على فرسه .. حتى بان عليه الارتباك .. وتوقف عن النهيق .. ووقف في خجل وإحساس بالخزي .. فقال المملوك لسنقر :

- وإيش كان يعمل حمار بانجو في حمام يا سنقر فالاد ؟!!

- تلاقيه كان بياخد له غطس يا سيدنا .

هنا كشّر المملوك عن أنيابه .. وتوحش وصرخ في سنقر :

- إنت عاوز سيد مملوك يغطس في حمام مع حمار ؟!!

- العفو يا سيدنا .. أنا مقصدش .. ده هوه اللي سهاني ونزل يستحمى من غير ما يقول لي .

وانهال سنقر على الحمار ضربًا ..

- وإنت إيه ينزلك المغطس يا حمار يا بن الحمار .. كان مغطس أبوك ؟

فصرخ فيه المملوك صرخة مفزعة جعلته يتسمر في مكانه ..

- اسمع فالاد .. لازم رد إهانات .. إما أقتل حمار أو أقتل سنقر .. لا .. أنا أقتل حمار وكمان أقتل سنقر .. أنا أقطع رقبة حمار بانجو وأضعها على جسم حيوان سنقر .

مكتبتنا
WWW.MAKTBTNABBIS.COM

هنا برك سنقر على الأرض .. وأخذ يقبل قدمي المملوك .. وهو يبكي :

- أبوس رجلك يا سيدنا .. العفو يا سيدنا .. السماح يا سيدنا .. ده حمار وغلط يا سيدنا .. أتاخد أنا بذنبه ليه ؟!!

وأخذ بانجو الحمار ينهق هو الآخر فتداخلت توسلات سنقر ونهيق بانجو .. والمملوك أخذ يضحك ويضحك فقد أعجبه منظرهما ولكنه أصر على أن ينفذ ما قال .. كان الشارع كله قد تجمع ليشاهد ما يحدث .. ولم يكن تجمع الناس حول المشهد لأنه جديد أو غريب أو مفاجئ فهذا يحدث كل يوم .. وإنما كان لتجمع الناس أغراض وفوائد أخرى .. منها أن كلاً منهم كان سعيدًا ويضحك لأنه ليس في موقف سنقر العصيب .. ومنها أن بعضهم كان يحاول أن يفهم ما الذي وضع سنقر في هذا الموقف حتى يتفادى أن ينزلق هو فيه بعد ذلك ، وكأنه يشاهد حكاية يأخذ منها العبرة والعظة .. كانت الناس في هذه الأيام هم فرجة الناس .. المشكلة أن المملوك إذا قال شيئًا لا يتراجع عنه وإلا اهتزت صورته أمام الدهماء والسوقة .. وبالتالي فتلك هي اللحظات الأخيرة في حياة كل منهما سنقر والحمار ..

وفجأة ولأن الله يريد أن يعيش سنقر وحماره أيضًا .. في لمح البصر ..

وبلا مقدمات .. كان مماليك الوزير ابن السلعوس قد انطلقوا في الشارع فوق خيولهم حيث بدأت المعركة بينهم وبين مماليك الأمير

مكتبتنا
WWW.MAKTBTNABIS.COM

بيدرا . وقد انهال أحدهم بسيفه البتار على المملوك (الواقف مشهرًا سيفه ليقطع رأس سنقر والحمار) .. ففصل رأسه عن جسده بضربة واحدة .. لتسقط رأس المملوك فجأة بين يدي سنقر .. ليجد سنقر الرأس التي كانت تهدده في لحظة واحدة .. هكذا بين يديه !!

ولم يصدق سنقر نفسه .. أمسك بالرأس والدماء تنزف منها ثم نظر إلى جسد المملوك وهو يترنح من فوق الفرس بلا رأس .. ولم يكن عليه أن ينتظر طويلًا فالمعركة بدأت في الشارع ومماليك الأمير بيدرا لن يسكتوا .. وأخذ سنقر رأس المملوك تحت ذراعه كأنه يحمل بطيخة ثم سحب بانجو ودخل الحمام مسرعًا وأغلق الباب بالأقفال والمتاريس بينما كانت الحوانيت تتحطم والبضائع تنهب وتسلب ومئات الجثث تتساقط هنا وهناك من هؤلاء الذين أتى بهم حظهم الأسود إلى هذا الشارع في هذا اليوم وبينهم هؤلاء الذين وقفوا يتفرجون على موقعة سنقر منتظرين أن يروا رأس سنقر وهي تطير فطارت رؤوسهم هم في الحمام ..

وضع سنقر رأس المملوك أمام المغطس .. وقال له شامتًا وهو يصفعه على قفاه :

- بأه كنت عاوز تقطع راسي وتقطع راس بانجو يا واطي ؟!!. انزل يا بانجو المغطس وبلبط في الميه براحتك.. هوه حمام أبوكوا يا ولاد الكلب !!.

مكتبتنا
WWW.MAKTBTNABIS.COM

ونزل بانجو إلى الماء .. وأخذ يسبح سعيدًا .. منتشيًا .. وإذا بطرق شديد على باب الحمام .. أصاب سنقر بالهلع .. وكاد الباب ينخلع وصوت المملوك الذي بالخارج يصرخ :

- افتح فالاد سنقر .. افتح باب فالاد ..

فجرى سنقر وغطى رأس المملوك بفوطة من فوط الحمام حتى أخفاها .. وفتح الباب فدخل العسكر .. وصاح به الفارس المملوك من فوق حصانه :

- فين رأس مملوك قتيل قدام حمام فالاد ؟!!.

- وأنا هاعرف منين يا سيدنا .. أنا راجل في حالي قافل عليا باب حمامي وكافي خيري شري .. وأنا حاعمل إيه براس مملوك .. ده حمام مش مسمط .. ده إيه النهار اللي مش عاوز يعدي ده !!

- مش يخاف فالاد سنقر .. إحنا مماليك وزير ابن السلعوس .. أنت ياخد مكافأة كبيرة لو قدمت راس مملوك .. عشان ده مملوك من مماليك أمير بيدرا حيوان .

قال سنقر مفاجئًا :

- أنا خدام الوزير ابن السلعوس يا سيدنا .. وآدي الراس أهيه .. اتفضل .. كاملة من كله .

مكتبتنا
WWW.MAKTBTNABIS.COM

وأخرج سنقر الرأس من تحت الفوطة .. وقدمها للمملوك الذي غرسها بقوة على سن حربته .. وحملها رافعًا إياها وخرج بها سعيدًا منتصرًا بعد أن لكز سنقر بقدمه فسقط على الأرض وهو يقول :

- كده برضه يا سيدنا !!. بأه هي دي المكافأة ؟!.

وخرج بانجو من المغطس وهو ينهق .. كان لنهيقه هذه المرة .. مرارة وشجن .. فقال له سنقر باكيًا :

- معاك حق يا بانجو .. أنا حمار .. أنا ستين حمار في بعض .. هما المماليك دول يطلع من تحت إيدهم خير .. قال مكافأة قال !!. إذا كان الأمير ولا الوزير .. ما كلهم نفس العينه .. سلسال واحد قلوبهم اتنزعت منها الرحمة .. لا يمكن دول يكونوا بني آدمين يا بانجو .. يا إما احنا بأه اللي مش بني آدمين !!.

* * *

في سوق الجواري يقف النخاسون لينادوا على بضائعهم .. من العبيد والنساء الجواري والغلمان وعملية البيع في الوكالة تشبه بيع المواشي .. فلكل شخص حرية فحص الجارية واختبارها بنفسه فيلمسها ويديرها أمامه ويحرك أعضاءها في أوضاع مختلفة .. كان العبيد السود يجلسون على الأرض في فناء واسع وكانت تبدو عليهم علامات عدم الاهتمام واللامبالاة .. كانوا يتحدثون ويضحكون ولا تبدو على وجوههم أي دلائل على الحزن والأسى .. أما الإناث فيعرضن لتفرس

مكتبتنا
WWW.MAKTBTNABIS.COM

المشترين ونظراتهم فلا يسترهن سوى قطعة صغيرة من القماش حول أصلابهن أو شال معلق فوق أكتافهن وهن مستسلمات تمامًا لأيدي المشترين والبائعين الفاحصة .

بينما يجلس النخاسون يدخنون الشبك في فتور إلى أن يأتي أحد المشترين لتبدأ المساومة وأسعار الجواري تتحكم فيها عوامل كثيرة أهمها اللون والسن والجمال .. ولم يكن زحام العامة في سوق الجواري زحام المشترين .. وإنما كان زحام المتفرجين .. وكان سنقر أحد الزبائن الدائمين في سوق الجواري (زبائن الفرجة) .. يذهب إلى هناك منذ شروق الشمس وقد أغلق حمامه .. ويظل حتى غروبها .. يملأ عينيه بجمال الجواري ويتمنى ويحلم .. ثم يعود في النهاية فوق حماره بانجو محبطًا .. فالأسعار لا طاقة له بها .. ولكنه اليوم استطاع أن يجمع أربعين دينارًا ظل يدّخرها لأكثر من عامين .. أغلق عليها صرّته .. ومضى وقلبه يعلو ويهبط من فرط انفعاله .. سيعود اليوم ماشيًا وعلى حماره الجارية التي يحلم بها .. يا سعدك يا بانجو .. ستجلس عليك بجسدها الطري ورائحتها العطرة .. عرفت يا حمار لماذا قمت بتلييفك بنفسي اليوم ؟!. لأن المهمة التي ستقوم بها أروع مهمة في تاريخك كله .. مهمة حمل أجمل جارية في السوق .. وأربعين دينارًا ليست بالمبلغ الهين .. بالتأكيد سنجد جارية رائعة بهذا المبلغ .. أنا لا يهمني وجهها بقدر ما يهمني اللحم الذي فيها .. هكذا كان سنقر يقول لنفسه .. وهو يقترب من النخاس عبد الكريم الخربوطلي الذي يعرض بضاعته

مكتبتنا
WWW.MAKTBTNABRIS.COM

بكل حماس .. والذي كان لطريقته في الإعلان عما عنده ما يجتذب إليه رواد السوق كله .. من فرط فصاحته وطرافة أسلوبه :

- قرب .. قرب .. متع نظرك ببلاش .. وجس وحسس ببلاش .. اللي مايشتري يتفرج .. لأ .. ويعاين ويلمس ويفعص زي ما هو عاوز .. بضاعتنا مضمونة وعمرنا ما غشينا حد .. الجارية اللي تاخدها من تحت إيد الخربوطلي تاخدها وانت مغمض ..

ثم قام وأمسك إحدى الجواري من يديها بحركة استعراضية .. وطلع بها على منصة خشبية أُعدت خصيصًا للعرض .. وقفت الجارية أمام الجميع .. ممشوقة القوام نافرة النهدين ذات عجز ممتلئة الأرداف ولكن بتناسق رائع .. باسمة في تعال .. رقيقة رغم أنوثتها المتفجرة .. شعرها أسود فاحم طويل .. منسدل على ظهرها .. وعيناها واسعتان عسليتان ورموشها طويلة .. اسمها نازك .. وكانت رغم ثيابها التي تظهر أكثر مما تُخفي ، بها حياء طبيعي وخجل يتورد له خداها وهي تتمشى أمام الجميع وكل القلوب تخفق معها .. وكان النخاس في قمة سعادته وتباهيه بما عنده .. ينظر إلى الوجوه التي نزل عليها سهم الله وإلى الألسن التي تدلت من الأفواه ما أن ظهرت نازك .. وكانت نازك متكدرة المزاج حيث إن عرضها مع هؤلاء الجواري بالسوق يعد حطًّا من قدرها وعقابًا حيث كان الرقيق الجيد يباع في منزل خاص .. والخربوطلي ينادي على اسمها وهو يشير بعصاه إلى أماكن معينة من جسدها كانت نازك تبرزها للمتفرجين في طاعة مثيرة ..

مكتبتنا
WWW.MAKTBTNABRIS.COM

- وريهم النهدين يا نازك ..

فتبرز نازك نهديها .. فيهتف المارة : آه .

- وريهم الساقين يا نازك ..

فتقعد نازك على الأرض كاشفة عن ساقيها البضتين المرمريتين فيهتف المارة : آه .

أروع ما في مصر أن أهلها يحبون الحياة .. فلو رأى أحد الغرباء ما حدث بالأمس من قتل ونهب والرؤوس التي سقطت وأشلاء الجثث التي ما زالت ملقاة في الطريق ولم تدفن حتى الآن .. لظن أن ما يحدث في سوق النخاسين الآن .. يحدث في بلد آخر .. قال سنقر للخربوطلي وهو يربت بيده على مؤخرة نازك :

- أنا شاري يا حاج عبد الكريم .. وفلوسي جاهزة .

فقال الحاج الخربوطلي :

- دي غالية عليك يا سنقر .. دي مش بتاعة الشعب والعوام اللي زيك .. دى ما تعيش إلا في قصـر .

قال سنقر متضايقًا :

- هوه أنا جاي لك علشان تبكتني يا حاج .. بين البايع والشاري يفتح الله .. إنت عاوز فيها كام ؟!

فضحك الخربوطلي ساخرًا وقال :

- طيب يا سيدي .. هات ألف دينار وخدها .

مكتبتنا
WWW.MAKTBTNABBIS.COM

فصرخ سنقر في هلع :

- كام ؟!!. دي مصر كلها مافيهاش ألف دينار !!. إنت بتستعبط عليا ؟!. هي بتعمل إيه يعني ؟!

- بتعمل كل حاجة يا سنقر .. بتعمل اللي انت ما تقدرش تعمله .. ولا تحلم انك تعمله .. هوه انت وأمثالك وش الحاجات دي !. ما كل واحد يبص على قده .

نظر سنقر نحو نازك وقد امتلأ بالشعور بالحرمان .. كان يريدها .. يريدها بكل جوارحه .. ولكن من يدفع ألف دينار في جارية !!. إن السلطان نفسه يتردد إذا سمع الرقم .. وقال لنفسه .. آه لو كان الألف دينار معي .. لما ترددت لحظة .. وشعر النخاس بما يجول في خاطر سنقر .. فقال لنازك آمرًا

- ادخلي جوه يا نازك .. خلاص ..

فدخلت نازك .. وسنقر يتابعها بعينيه حتى اختفت خلف ستار .. فهمس متوسلًا :

- طيب آخدها نظام يا حاج .. أدفع لك كل شهر حاجة .. أنا معايا أربعين دينار دلوقتي .. خدهم وخد الحمار ده واديهالي .

فنهق الحمار متضايقًا بينما استغرق النخاس في ضحكة طويلة :

- بأه عاوز تديني الحمار وتاخد نازك ؟!!.

مكتبتنا
WWW.MAKTBTNABBIS.COM

وتضايق سنقر من سخرية النخاس وهم بالانصراف .. فأمسك به النخاس وقال له :

- استنى بس .. استنى .. أنا مش حاامشيك زعلان .. عندي حتة حلوة قوي وبالأربعين دينار اللي معاك ..

قال سنقر متشبثًا كالأطفال :

- بس أنا عاوز نازك !

قال النخاس الذي لا يريد أن ينصرف دون أن يأخذ ما معه من مال :

- بلا نازك بلا قرف .. دي بت نكدية وح تتعبك .. دي منظر ع الفاضي .. وريحتها وحشة .. وطويلة عليك .. إنت ما ينفعكش غير شمس الشموس ..

نظر سنقر نحوه وقد استبد به الفضول .. وقال له :

- ودي أحلى من نازك ؟!

- أحلى ألف مرة ..

ثم نادى النخاس :

- إطلعي يا شمس الشموس ..

وانفتح الستار لتخرج شمس الشموس .. امرأة قاربت على الستين من عمرها .. سوداء .. وقد ملأ وجهها الأصباغ والمساحيق .. بالكاد تمشي في وهن .. قبيحة .. طويلة الأنف .. نحيفة .. فصرخ سنقر حينما رآها :

مكتبتنا
WWW.MAKTBTNABBIS.COM

- بأى دي شمس الشموس ؟!. دي محروقة يا حاج ؟!!. والله لو اديتني عليها خمستلاف دينار ما آخدها !.

- طيب اسمع بس يا سنقر .. طيب خدها وهات الحمار .

- ليه ؟!. هو انا حمار يا حاج ؟!!

وأثناء البيع كان المشترون يقلبون الجواري كما يقلبون أي سلعة يريدون شراءَها .. وذلك لأن النخاسين كانوا يلجأون إلى الحيلة في إخفاء العيوب .. فيغيرون لون البشرة ويحيلون السمراء إلى ذهبية اللون ويحمرون الخدود المصفرة وينعمون الأطراف الخشنة ويزيلون ما في الوجه من آثار الجدري والنمش والوشم ويطيبون الفم والجسد .. ولهم في ذلك وسائل شتى من التدليك بالدهن والشمع والطلي بالأصبغة والتضميخ بالعطور والطيوب .

وفجأة دخل السوق أحد التجار وبيده جارية وأمسك الخربوطلي النخاس وهو لا يزال يتفاوض مع سنقر .. وقال له :

- يا راجل يا نصاب يا حرامي يا قليل الدين !. تديني جارية .. أروح البيت ألاقيها دكر !. تديني عبد بسعر جارية .. اشهدوا يا ناس على الراجل النخاس اللعس ..

فأخذ المارة يلتفون حول الرجل ويؤازرونه ضد النخاس فقال أحدهم :

- ده اداني جارية وقالي إنها زينة الجواري .. طلعت هبله ..

مكتبتنا
WWW.MAKTBTNABIS.COM

نظر سنقر نحو نازك مذعورًا .. فحولت له عينيها ولعبت له حواجبها وأخرجت له لسانها فارتبك ..

ومضى سنقر هو وحماره .. وهو في قمة الضيق .. وإذا بحماره بانجو يحرن ويرفض المسير .. فصرخ فيه سنقر :

- وقفت ليه انت راخر ؟! مش ناقصاك النهاردة .. كل حاجة واقفة انت زعلان علشان كنت حابيعك .. ما هي البيعة باظت يا بانجو .. وانت كمان لازم تحس بيا .. تقدّر مشاعري .. أنا في عز شبابي .. والشباب نار يا بانجو .. ما تآخذنيش بأه ..

ثم شرد سنقر طويلًا .. وعاد ليسأل حماره فجأة :

- إنما الواحد عشان يعمل له ألف دينار في البلد دي يا بانجو .. لازم يعيش كام سنة ؟!!

❊ ❊ ❊

مكتبتنا
WWW.MAKTBTNABBIS.COM

الفصل الثاني

لم يكن أحد يعرف تحديدًا ما هي طبيعة العلاقة بين سنقر وحماره بانجو .. كان الناس يراقبونهما أثناء سيرهما في الطريق ويتغامزون .. بعضهم أكد أن بينهما – سنقر والحمار – شبهًا غريبًا وتطابقًا في الملامح .. حتى أن أحدهم أقسم أن سنقر رضع وهو صغير من أم الحمار !. والبعض الآخر أشار بخبث إلى أن علاقة شاذة تربط بين سنقر والحمار .. وأن كلاهما يغير على الآخر غيرة جنونية ..

وحُكي يوم أن جاءت إلى الحمام جارية بيضاء رومية تمتطي أتانًا .. والأتان هي أنثى الحمار .. وأنه رفسها رفسة كادت تودي بحياتها لا يعرف أحد من الذي رفس ؟!. هل هو سنقر أم الحمار ؟!

في السّنوات الأخيرة لم يعد سنقر يكلم أحدًا .. كانوا فقط يشاهدونه ممتطيًا حماره أو سائرًا بجواره ويغمغم بكلمات غير مفهومة .. وكان الحمار يهز رأسه معقبًا بجدية من يستوعب .. وكان أحيانًا يعلق

مكتبتنا
WWW.MAKTBTNABBI.COM

على ما يقوله سنقر بأن ينهق فيقاطعه سنقر معترضًا بصوت لا يختلف كثيرًا عن صوت الحمار قائلًا : لا إستنى بأى يا بانجو ما تقاطعنيش .. الموضوع غير ما انت فاهم خالص وكان المارة يضحكون حتى يستلقوا على قفاهم .. الشيء المثير .. أنهما في سيرهما – سنقر والحمار – كانا يتحركان ببطء شديد .. حتى تظن إذا رأيتهما أنهما تمثالان .. أو أن الحياة قد توقفت بالنسبة لهما .. ثم فجأة .. يُفاجأ أهل الحارة جميعًا بهما وهما يركضان بسرعة جنونية مهولة .. فلا ينجو من اندفاعهما بعض المارة وأحيانًا يقرطمان بأبواب الحوانيت وتتحطم البضائع .. وتصاحبهما لعنات المارة وشتائمهم .. وينهالون عليهما بالحجارة والعصى والنبابيت ..

* * *

وسنقر الجلبي كما رأينا يملك حمامًا ورثه عن أجداده .. ورغم ذلك فهو لا يطيق الاستحمام .. ويقول العامة إنه لم يستحم من أيام الملك المنصور قلاوون يرحمه الله .. لم يتبق من أهله أحد على قيد الحياة .. كلهم قتلوا في المعارك التي كانت تدور بين المماليك في السوق .. أما سنقر فكانت السهام والحراب والسيوف دائمًا ما تخطئ طريقها نحوه فتمر بجوار عينه أو بين فخذيه أو إذا انحنى فجأة يرشق السهم في الحائط الذي خلفه .. ولو كان واقفًا وقتها لاستقر في قلبه .. ولم يكن

مكتبتنا
WWW.MAKTBTNABIS.COM

الموت يخطئ سنقر دائمًا لمهارة فيه أو لقدرة على الانفلات منه في آخر لحظة .. وإنما لأن سنقر نفسه لم يكن مستوعبًا للموت بقدراته العقلية المحدودة وكأنه لسذاجته لم يتوفر لديه الوعي الكافي لكي يقابله ..

فقد سنقر كل شيء .. الأب والأم والأعمام والأخوال .. ولم يتبق له سوى الحمار بانجو ..

كان سنقر شاردًا جالسًا أمام الحمام ينظر نحو بانجو الذي يأكل بشراهة التبن الموضوع أمامه .. فهمس له سنقر بحب :

- كل .. كل يا بانجو .. أحط لك تاني ؟

أومأ بانجو برأسه ..

فقام سنقر ووضع له مزيدًا من التبن .. ثم أردف قائلًا :

- عشان المشوار اللي رايحينه طويل .. ياللا اعمل لك هِمه ..

وفجأة .. وقف أمام الحمام رجل ضخم الجثة أسود اللون عريض المنكبين يبدو كأنه مارد خرج لتوه من القمقم .. وخلفه عدد من الجواري المنقبات يتضاحكن في ميوعة .. واقترب من سنقر ..

- أنت المعلم سنقر الجلبي صاحب الحمام ؟

انتفض سنقر من على مقعده .. مرعوبًا ..

- أيوة يا خويا .. أنالا معلم ولا حاجة .. أنا على باب الله .

مكتبتنا
WWW.MAKTBTNABIS.COM

- أنا برغل أغا ..

- وأنا ليا الشرف إني أقابل حضرتك اليوم ..

كان برغل أغا خصيًّا أمرد سليب اللحية والشاربين .. بجسم يميل إلى السمنة وفي صوته خنوثة تبدو عليه علامات التكبر في وجوم وأسى .. سريع الخوف سريع الغضب .. به ميل للأذى تجاه الآخرين والخصيان هم المؤتمنون على حراسة وخدمة الحريم .. وهذه الأمانة كانت مصدر فخر وشرف لهم .

واقفًا وخلفه الجواري نظر برغل أغا نحو سنقر الذي نظر في الأرض احترامًا وخشية أن يرمقه برغل بطرف عينه وهو يحدق في الحريم .. وقال له باستكانة :

- أؤمرني يا حضرة الأغا ..

فقال له برغل بألاطة وعنجهية :

- أنا جايب الجواري دول عشان يستحموا عندك في حمام .. دول من حرملك السلطان الأشرف خليل بن قلاوون .

- أنا خدام الجواري يا عمي .. وعبد من عبيد السلطان خشوا اقلعوا .

(وهمس سنقر للحمار بانجو) :

- شايف .. آدينا اتعطلنا أهوه .. عمال أقولك اخلص عاوزين نمشي .. يا مستعجل عطلك الله ..

مكتبتنا
WWW.MAKTBTNABIS.COM

اندهش برغل الطواشي حينما رأى سنقر يكلم الحمار .. وسأله بفضول :

- إنت مخاوي يا جدع انت ؟!

- أنا ؟!. أبدًا والله يا برغل أغا .

- لا .. أكيد مخاوي .. أنا لازم يبلغ مولانا سلطان إن فيه واحد سنقر جلبي يكلم حيوانات .

- يا عم أنا باكلم نفسي .. من غُلبي .

- أنت يكلم نفسك تبأى واحد مجنون لازم يروح بيمارستان ..

* * *

ودخلت الجواري بمرح وسرور إلى باب الحمام .. كان المدخل أشبه بقبو وفي ركن منه تجلس المشرفة على الحمام .. لتتلقى منهن ودائعهن من نقود وحلي وغير ذلك مما يخشى عليه من الضياع أثناء الاستحمام ..

ومن المدخل يدلفن جاريات إلى بهو فسيح بوسطه ردهة مبلطة بالفسيسفاء ويتوسطها فسقية رائعة .. وفي جوانبها إيوانات بها مصاطب ترتفع قليلًا عن الأرض .. والحمام لابد أن يكون مسدود النوافذ ليس فيه طاقات ولا أبواب مفتحة لأنه يشتمل على ماء حار وهواء حار .. مبنيًا بالحجر الصلب رفيع البناء واسع الفضاء حتى تتفرق الحرارة ولا تنحصر الأنفاس ورغم ذلك فالحمامات غالبًا ما تكون كثيرة

مكتبتنا
WWW.MAKTBTNA8891.COM

الضياء ، والنور الذي يدخل إليه إنما يمر من جامات أو نوافذ مغلقة الإحكام في السقف بها زجاج شفاف .. على جدرانه نقشت الصور البديعة كالأشجار والثمار والدروع والسيوف والرماح والقلاع والحصون والسفن والوحوش والأطيار المغردة .. وكما قال ابن سينا :

- خير الحمام ما قدم بناؤه واتسع فضاؤه وعذب ماؤه .

ويكون الدخول للحمام بالتدريج فغير الساحة الأولى .. عمل أهل مصر على جعل الحمام من الداخل بيتين .. الأول منها للتبريد والترطيب ولكن ماءه لا تضعف سخونته لقربه من النار .. والبيت الثاني ملاصق لمحل النار أقوى حرارة من الأول وبه كثير من الحياض والمغاطس المستديرة إذا جلس فيها من يريد الاستحمام غمرت البدن كله ..

وبدأت الجواري في خلع ثيابهن فصرن عاريات تمامًا كما ولدتهن أمهاتهن .. ودخلن عابثات إلى بيت الحرارة فاستقبلتهن البلانة وأخذت تدلك أجسادهن بقشور الرمان وتزيل الشعر الزائد بعجينة من السكر والليمون ثم من البلانة إلى الماشطة التي تقوم بتزيين الوجه والرأس .. والنساء في صخب وضحك .. فهذه تخضب يديها وقدميها بالحناء .. وهذه توشم أجزاء من جسمها بالوشم الذي تفضله .

* * *

مكتبتنا
WWW.MAKTBTNABIS.COM

في مدخل الحمام كان برغل الطواشي جالسًا وقد وضع سنقر أمامه ما لذ وطاب من الحلوى التي يأكلها بنهم .. وسنقر يحلق له شعره ويحاول أن يكسب وده ويتقي شره بكل الطرق ..

- عجبتك المهلبية يا برغل أغا ؟.

- هايل .. عظيم .. لكن .. إديني كمان .. مهلبية كمان ولد سنقر .

- ده سابع طبق مهلبية تقوم بيها يا عم برغل .. الرحمة !.

- علشان أنا يسكت ومش يبلغ مولانا السلطان لازم ياكل مهلبية كمان .

- لأ .. إنت مش عاوز مهلبية .. إنت عاوز سد الحنك .. إنما .. قوللي يا عم برغل .. هوه أنت طواشي من إمتى ؟!. قصدي يعني .. وهما بيشيلولك الحاجات كان عندك كام سنة ؟.

- أنا مش يتذكر إمتى سنقر .. أنا كنت لسه مولود ..

- ولما بتدخل مع الحريم في الحرملك .. بتعمل إيه ؟!.

- أنا مش يعمل حاجة ..

- وبيبأوا قالعين قدامك ؟

- ملط .

- يا قلبك يا برغل .. وعمرك ما حسيت إنك عاوز يعني ..

- عاوز إيه ؟!

- تلهط زي ما انت نازل لهط كده في المهلبية من الصبح .

مكتبتنا
WWW.MAKTBTNABRIS.COM

قال برغل ببراءة مستغربًا :

- ألهط إيه ؟!.

- يا بختك يا برغل .. ده انا لو شفت عنين واحدة باصة من مشربية ما بانامش الليل .

- ليه يا سنقر ؟!.

- ح أقولك إيه بأه .. لو قعّدت اشرحلك من هنا للصبح مش حتفهمني .. أصل إحنا يا برغل كرجالة يعني لما بنشوف الحريم بنبأى زي ما تقول كده .. بنسخن .. شوف يا برغل .. زي الحكماء اللي قبلنا ما قالوا اللذات خمس .. لذة ساعة وهي الجماع .. ولذة يوم وهو الحمام ..

ثم صمت ..

فقال له برغل :

- وإيه ثلاثة باقيين فالاد سنقر ..

قال سنقر :

- أنا مش فاكر غير دول .. ومش مجنني غير دول .

فضحك برغل وقال له:

- وليه ما تشتري لك جارية من السوق فالاد سنقر ؟.

- الأسعار ولعت يا برغل .. ما انت عارف .. النخاسين بأوا مفترين .. النخاسة كانت زمان .. ده أنا أبويا الله يرحمه كان يحكيلي إنه كان ينزل

مكتبتنا
WWW.MAKTBTNABBIS.COM

سوق النخاسة يجر له أربعتاشر مره وراه ويدفع على مهله .. كل شهر يدفع له 5 دينار .. واللي ما تعجبوش يرجعها وياخد بدالها .

وأثناء الحوار بين برغل وسنقر .. كان الحمار بانجو منصتًا مبتسمًا في خبث .. ودخلت البلانة بجرأة .. وقالت :

- فين الطواشي برغل أغا ؟

قام برغل واقفًا في احترام وضرب قدمه في الأرض .

- تعالى ياخويا الحريم عاوزينك .

وهرول برغل خلفها مسرعًا .. وسنقر ينظر في أثره وقال للحمار بانجو .

- روح يا عم برغل .. روح دلك وكيس ودلع نفسك .. يا بختك .. ألا باقولك إيه يا بانجو .. هوه الواحد مش لو كان طلع طواشي كان أحسن .. لا كنا شيلنا الهم بأه .. ولا سهرنا الليالي نفكر في الحريم .

ونهق بانجو معترضًا على كلام سنقر .. فقال له سنقر :

- وانت إيش فهمك يا بانجو .. إنت حمار .. ده انت بتشوف الحمارة من هنا ويركبك ستين عفريت .. مش لو كنت سمعت كلامي وبأيت حمار طواشي كان زمانك عايش مرتاح ... طيب .. نهق ياخويا .. نهق .. آدي اللي انا واخده منك .. قوم بأه وياللا نروح مشوارنا قبل ما حد تاني يطب علينا في يومك اللي مش فايت ده .

* * *

مكتبتنا
WWW.MAKTBTNABIS.COM

وانطلق بانجو وفوقه سنقر الجلبي في الحارة .. ففعلا ما يفعلانه في كل مرة اندفعا في غباء ورعونة ولعنات الجميع تلاحقهما.. لم يكن سنقر فقط الذي في عجلة من أمره .. بانجو أيضًا كان متعجلًا أكثر .. فهما ذاهبان الآن إلى الجنة .. نعم .. إلى الجنة .. الجنة التي اكتشفها بانجو حينما تاه ذات يوم وكان سنقر نائمًا فوقه .. وأفاق ليجد نفسه في مكان عجيب .. هو صحراء .. ولكن به أشجار غريبة تقف كالأشباح .. أشجار لم يرها سنقر من قبل وكان الحمار بانجو يأكل من أوراقها بنهم شديد ويجترها في فمه باستمتاع .. يتذكر أنه يومها أخذ يلعن بانجو .. ويضربه ضربًا مبرحًا .. ويضحك حينما يتذكر أن بانجو لم يكن يتألم أو يعترض على ضربه إياه .. بل كان سعيدًا .. يبرطع ويرقص .. وكان لنهيقه طعم غريب .. ولما أيقن سنقر أنهما لن يستطيعا العودة في تلك الليلة ، ولما استبد به التعب والبرد .. جلس على الأرض وأحضر بعضًا من فروع الشجر وأشعل فيها النار ليتدفأ حتى يطلع النهار .. وإذا بدخان غريب ينبعث من أفرع الشجرة المشتعلة .. دخان رائحته عجيبة دخلت في نخاشيشه وصعدت إلى رأسه فبدأ يرى أشياء رائعة .. رأى الجواري ترقصن عند قدميه .. وكانت نازك أحلاهن وأكثرهن أنوثة وروعة .. كانت تغني وترقص له وحده .. والأشجار الوارفة من حولهما والنخيل يتمايل .. والأنهار تجرى من حوله .. ونظر نحو بانجو .. الذي كان يبتسم ابتسامة رائعة .. وكان شكله وسيمًا جدًّا .. أجمل من

مكتبتنا
WWW.MAKTBTNABIS.COM

كل أمراء المماليك وغلمانهم وكان صوت نهيقه أشبه بغناء المغاني اللاتي ينشدن فيأخذن الألباب بسحر أصواتهن .. وأخذ يدندن بأغنية الست نصيفة الحموية تلك المغنية التي بدأت تذيع شهرتها .. وكان بانجو يدندن الأغنية معه .. ولما فرغا من الغناء قاما .. ورقصا معًا ..

وشعر سنقر أنه أقوى رجل في مصر .. فصرخ بأعلى صوته :

- ملعون أبو الوزير .. ابن السلعوس .

وقال له بانجو :

- ألف مرة .

- على أبو الأمير بيدرا .

- ألف مرة .

- على أبو السلطان خليل بن قلاوون .. قال مسمي نفسه الأشرف قال .. الأشرف ده عند امه .. الواطي الظالم المفتري .

- ألف مرة .

وهكذا مرت الليلة الأولى التي ذهب فيها سنقر وبانجو إلى تلك المنطقة النائية .. والتي جعلتهما صديقين حميمين .. فكانا في طريق العودة .. يمشيان ببطء شديد ممل من تأثير المخدر .. وهما يتهامسان والناس تضحك من منظرهما .. وحينما يريدان الذهاب إلى الجنة (جنة

مكتبتنا
WWW.MAKTBTNABIS.COM

المخدر) التي اكتشفها الحمار بانجو .. كانا يقطعان الحارة بمنتهى السرعة والهمجية لحاجتهما الشديدة إلى المخدر الذي صار إدمانًا .. والحقيقة أن سنقر الجلبي لم يكن يحرص على الذهاب إلى حيث أشجار المخدر فقط لكي يستنشق الدخان الأزرق أعظم اكتشافات حماره بانجو وإنما .. ربما .. لكي يفضفض قليلًا ويخرج ما بصدره من الكبت والغل والضيق .. من مصر التي يحكمها المماليك بالنار والحديد ..

* * *

مكتبتنا
WWW.MAKTBTNABRIS.COM

الفصل الثالث

جالسًا على عرشه .. وأمامه الأُمراء والشعراء والندماء .. سلطانًا حقيقيًّا يملأ العين ويرجف القلب .. شجاعًا مقدامًا عالي الهمة .. ضخمًا سمينًا كبير الوجه بديع الجمال مستدير اللحية ، على وجهه رونق الحُسن وهيبة السلطنة شديد السطوة والوطأة .. قوي البطش تخافه الملوك في أمصارها والوحوش في آجامها .. لم يبلغ الثلاثين بعد .. لم يترك ولدًا ذكرًا .. وإنما لم يكن له سوى ابنتين .. هكذا كان السلطان الأشرف خليل بن قلاوون الذي برغم أنه فتح عكا وصور وبيروت قلعة الروم إلا أنه كان يطارح الأدباء بذهن رائق وذكاء مفرط .

دخل عليه الوزير ابن السلعوس وقبَّل الأرض بين قدميه حاملًا أوراقًا يريد ختمه عليها ..

مكتبتنا
WWW.MAKTBTNABRIS.COM

نظر الأشرف خليل إلى الوزير وهو يتأمل الأوراق بعناية ويفحصها بدقة .. وقاله له باستنكار :

- ما هذا يابن السلعوس .. إنتوا فاكرين السلطان ده إيه ! فلاح ! واحد من السوقة والعوام ؟! أنا أكتب وأقرأ وأفهم أعظم من كل علماء مصر .. ما هذه الكتابة الركيكة ؟!. من هذا الذي يوقع على المكتوب .. بالزعيم ؟! من زعيم الجيوش غيري يابن السلعوس !

ارتجف الوزير .. وجف حلقه .. وقال :

- يا مولاي السلطان .. هو الأمير بيدرا .

تنهد الأشرف خليل في ضيق واستنكار :

- آه .. أي مصيبة في البلد دي .. أي كارثة .. لابد أن تلزقها في الأمير بيدرا ما هو الحقد والكراهية اللي بينكوا دي هي اللي ح تجيب الخراب للسلطنة كلها .

قال الوزير :

- يا مولاي .. أنا قدمت لفخامتكم تقارير كثيرة عن اللي بيعمله الأمير بيدرا في السلطنة .

- وتفتكر إني ما قريتهاش يابن السلعوس !. أنا باقرا كل كلمة بتجيني كويس .

مكتبتنا
WWW.MAKTBTNABIS.COM

- الأمير بيدرا يا مولاي .. ماحدش قادر يقف قصاده .. ونوابه استولوا على المتاجر وظلمه على العباد اشتد واستفحل .. الأمير بيدرا يا مولاي يمتلك من الأموال والثروات والضياع والأراضي والجواري والقصور أضعاف ما يملكه مولاي السلطان .. ولقد كتبت في التقرير إن غلمانه قد استولوا على البهار وأدخلوه الحواصل وحينما اعترضت على ذلك حدث بيني وبينهم شجار وتجرأوا عليا .. وقالوا كلامًا في حقي وفي حق السلطان .

وشرع ابن السلعوس يزيد على كل كلمة عشـرة ، وأغلظ القول في حق الأمير بيدرا وأثخن جراحاته عند السلطان حتى حرضه عليه ثم قدم له مكتوبًا وقال له :

- وهذا تقرير بما هو موجود عنده وما حدث منه .

هنا اشتد غضب السلطان وهو يقرأ التقرير .. وصرخ في حراسه :

- أرسلوا في طلب الأمير بيدرا .. ليأت إليَّ حالًا ..

ونظر إلى من حوله .. وقد استولت على الجميع حالة من الصمت والرهبة .. فالأشرف قلاوون .. حينما يغضب فإن غضبه مهولٍ .. كبركان ينفجر فتتصاعد ألسنة اللهب والحمم منه وقد تصيب آخرين ليس لهم يد ولا شأن في الموضوع ..

* * *

مكتبتنا
WWW.MAKTBTNABRIS.COM

دخل الأمير بيدرا وكان فارسًا مغوارًا ممشوق القوام طويل القامة .. تبدو على وجهه آثار النعمة وسعة العيش .. كان معتدًّا بنفسه .. كحصان عربي أصيل .. به خيلاء .. وكبر .. تخلى عنهما مؤقتًا حينما دخل على السلطان .. لكنه لم يستطع أن يتخلى عنهما تمامًا .

انحنى أمام السلطان .. وقبَّل الأرض تحت قدميه .. كان يفعل ذلك كأنه يمارس لعبة رياضية أو يمثل شيئًا غير مقتنع به .. لم يكن أداؤه به الخشوع الملائم والخوف التقليدي .. وشعر السلطان بذلك .. استطاع بفراسته أن يقيِّم مشاعر بيدرا تجاهه .. إنه يستخف به .. ولكنه سيلقنه درسًا لن ينساه .

صرخ السلطان الأشرف صرخة مفزعة كأنها زأرة أسد تمكن من فريسته :

- من السلطان هنا يا بيدرا ؟

- هو أنت يا مولاي .

- ومن أنت ؟

- أنا عبدك وخادمك المطيع يا مولاي .

- وهل تعلم ماذا يحدث للعبد إذا تغير خاطر السلطان عليه ؟!

- أعلم يا مولاي .. وأتمنى الموت قبل أن يتغير خاطركم عليّ .

مكتبتنا
WWW.MAKTBTNABIS.COM

- إذًا فأنت اخترت الموت .. ولكني أرى الموت لكم على يدي مكافأة لا تستحقها .

- افعل بي ما تشاء يا مولاي ولكن هل لي أن أعرف سبب تغير خاطر عظمة السلطان عليا من الذي وشى بي عندك يا مولاي ؟

فضحك السلطان ضحكة مخيفة ارتجت لها قاعة السلطنة .

- وهل تسأل الذبابة الأسد مثل هذا السؤال ؟! أنت هنا لست أكثر من ذبابة حقيرة .. وليس لك أي رأي .. ولا صفة في الدولة .. وحينما أعود من رحلة الصيد لي معك شأن آخر .. فهمت يا ذبابة ؟

وضحك الجميع مجاملين السلطان طبعًا .. فالسلاطين إذا قالوا نكتة لابد أن تضحك لها الحاشية .. وأعجب السلطان ضحكهم له .. وشعر بجبروته .. وفصاحته فأعاد النكتة :

- فعلًا .. إنه يشبه الذبابة .. أليس كذلك ؟

وضج الجميع بالضحك حتى كادوا يستلقوا على قفاهم .

- هو ذبابة !! ذبابة .. ها ها .. هشوه من هنا .

وعلا الضحك .. وأخذ يعلو ويعلو ..

- لماذا لم تضحك يا بيدرا ؟! ألا تعجبك الذبابة ؟! اضحك كما يضحكون .. ألا تضحك للسلطان يا ذبابة ؟!

مكتبتنا
WWW.MAKTBTNABBIS.COM

واغتصب بيدرا ضحكة بصعوبة .. محاولًا الخروج من المأزق .. فقال له السلطان محاولًا تجويد النكتة أكثر .. فالضحك مغرٍ ..

- لا .. ها ها .. قل .. قل .. أنا ذبابة .. قلها .

وتمالك بيدرا أعصابه .. وقد غلا الدم في عروقه ، ولكنه كان بين أن يقتل أو أن ينفذ أوامر السلطان ..

- أنا ذبابة يا مولاي .. أنا ذبابة .

والقاعة كلها تضحك .. الأمراء والمماليك والحاشية .. بعضهم كان يضحك شامتًا .. والبعض الآخر يضحك منافقًا .. وغيرهم كانوا يضحكون لأنهم ليسوا في موقف بيدرا الذي لا يُحسد عليه :

- وهل الذبابة تتكلم يا غبي ؟! الذبابة تطن .. أسمعني طنين الذبابة .

- إززززز ... إززززز

- أرني كيف تطير الذبابة .. هيا .

وأخذ بيدرا الفارس يطير بذراعيه مقلدًا الذبابة .. وقد استغرق الجميع في ضحك متواصل حتى كادت قلوبهم تتوقف من الضحك .

* * *

خارجًا من القلعة .. كان الأمير بيدرا في قمة الغل والحقد والإحساس بالانكسار بعد ما فعله معه السلطان أمام الجميع .. راكبًا

مكتبتنا
WWW.MAKTBTNABIS.COM

فرسه .. وخلفه مماليكه الذين انضموا إليه .. ومشى الركب في شوارع القاهرة .. يضربون الناس من حوله والعامة يفرون من أمام الموكب كفئران مذعورة .. وبيدرا .. كان يفكر فيما سيفعل .. وكان قد أرسل أحد مماليكه لإحضار الأمير حسام الدين لاجين والأمير قرا سنقر .. وآخرين .. ليلتقوا عنده في قصره .

* * *

دخل قصره المنيف .. ورأى على بابه حراسه الأشداء من المماليك الذين اشتراهم ليحرسوه .. ورأى الفخامة والغنى والثراء الفاحش الذي يعيش فيه ، ولكنه أحس بأنه أحقر كائن في مصر .. وما قيمة الثروة والسلطة بغير كرامة ؟!. كان بانتظاره الأمير بهادر والأمير لاجين والأمير قرا سنقر .

قال له الأمير لاجين :

- ماذا تريد يا أمير بيدرا ؟!

قال بيدرا :

- لقد اجتمعت بكم لأنني أعرف أننا يد واحدة ..فهل إذا قدرت أمرًا تساعدونني عليه ؟

قال الأميرا قرا سنقر :

- دون شك يا أمير بيدرا .. أنت كبيرنا وأمرك نافذ علينا .

مكتبتنا
WWW.MAKTBTNABIS.COM

قال بيدرا :

- لقد قررت أن أقتل السلطان .

قال لاجين .. وقد رفعوا سيوفهم جميعًا خلفه متحدين ..

- ونحن معك ..

* * *

ومضى الجميع من قصر الأمير بيدرا إلا الأمير لاجين الذي بدا سعيدًا بما قرروه واتفقوا عليه .. كان بيدرا شاردًا مهمومًا فقال له لاجين مشجعًا :

- لا تحمل همًا يا سمو الأمير .. ولكم في القصاص حياة .. إن في قتل الأشرف خليل خيرًا كبيرًا لنا جميعًا .. ولمصر كلها .. لقد سمعت بأذني العامة وهم يدعون عليه ويتمنون زوال حكمه .. وأنت ستحقق للشعب ما يريد .. إذا كان قد أهانك أمام حاشيته الفاسدة .. فأنا لن أنسى له أنه خنقني لولا أن الله أراد لي الحياة .. ألا تذكر يوم المذبحة الكبرى التي شنق فيها الأمير سنقر الأشقر وجرمك الناصري وبلبان الهاروني .. وحمايا أبو زوجتي ركن الدين طقسو .. رأيت رؤوسهم جميعًا وهي تسقط أمامي تحت المشنقة .. حتى أتى دوري في الشنق ووضع السلطان بنفسه الوتر في رقبتي .. وبدأ يشد الوتر لخنقي .. فانقطع الوتر .. هكذا من نفسه لحظة إلهية .. لو لم ينقطع

مكتبتنا
WWW.MAKTBTNABIS.COM

الوتر قبلها لما استطعت أن أعيشها.. قلت له متوسلًا متمسكًا بآخر أمل لي في أن أعيش .. يا مولاي السلطان .. إيش ذنبي .. إذا كان حمايا شريك في المؤامرة .. آديك شنقته وأنا أطلق بنته .. وبكيت يا أمير بيدرا .. بكيت بكاءً مرًّا .. ولولا تدخلك أنت مع السلطان وإلحاحك في العفو عني لما كنت الآن أكلمك وتكلمني ..

دمعت عينا لاجين وهو يتذكر الحادث المؤلم .. ومسح دموعه بكبرياء وشموخ .. ثم وقف في إصرار وقال :

- لا تتردد يا أمير بيدرا .. أنت على الطريق الصحيح .. وأنت الأحق بالسلطنة .

* * *

في الحمام .. كان الخربوطلي راقدًا على بطنه وسنقر يدلك ظهره ويكبسه ويلقي على ظهره الزيوت والعطور والخربوطلي في غاية المتعة والانتشاء ..

- أيوة .. أيوة يا سنقر .. الحتة اللي فوق دي .. طقطقهالي بإيدك كده .. أيـوة ..

- بادلكك بنفسي أهوه يا عم خربوطلي .. وعامل معاك شغل .. والله لو اني السلطان نفسه ما أعمله معاه .. تعرف .. لو حد غريب والله ما كنت آخد أقل من دينارين .

مكتبتنا
WWW.MAKTBTNABIS.COM

- دينارين !! ليه يا سنقر ؟! إنت بتعمل إيه يعني .. ده الحمام اللي عندنا في الوكالة باحمِّي فيه بالتلاتين جارية وهما الدينارين اللي بادفعهم برضه ! لا إنت كده مغلواني يا سنقر !

- أنا برضه اللي مغلواني يا عم خربوطلي !. ده أنا بقالي سنتين رايح جاي عليك مش عارف أطلع منك بحتة جارية !

- ما انت اللي مش عاجبك العجب .. كل ما اجيبلك واحدة على ذوقي تقول لأ !

- يا عم خربوطلي .. أنا عاوز واحدة على ذوقي أنا .. مش أنا اللي حادفع ؟!

- هو انت ياد تفهم في الجواري أكتر مني ! ده انت لو عصرتني بإيدك كده أنقط جواري .. أبص للجارية من دول بصة واحدة أجيبلك قرارها .. اللي عنيها تلاقيها واسعة كده ومفنجلة تبأى كسلانة مش بتاعة شغل .. واللي عينها داخلة لجوه تبأى حسودية .. اللي عينها جاحظة وطالعة لبره تبأه قليلة الحيا معندهاش خشا .

- آه يا عم خربوطلي .. نفسي في واحدة من أمات عنين جاحظة دول .

- نيجي بأه للمناخير .. اللي مناخيرها صغيرة عاملة زى النبقاية .. تبأه شرانية .. اللي مناخيرها طويلة زي الخياراية تبأه هبلة واللي مناخيرها غطسانة ومبططة تبأه قليلة الحيا ..

مكتبتنا
WWW.MAKTBTNABIS.COM

- آه يا عم خربوطلي .. لو كانت عنيها جاحظة على مناخير مبططة .

- اللي بقها واسع تبأه بت جريئة ما يهمهاش حاجة .. واللي شفايفها كبيرة بـأه ..

- ما ترحمني بأى يا عم خربوطلي .. أنا تعبت وانت نايم قدامي عريان كده .. إنت مانتش خايف على نفسك !

- يابني يا سنقر .. أهم حاجة في الجارية تعرف أصلها منين .. الهندية .. حلوة وطيبة ومنكسرة .. صفرا شوية صحيح إنما طرية .. بس دول يكبروا ويعجزوا بسرعة .. البربرية .. تبأى خاتم في صباعك .. وسريرها حلو إنما خلقها ضيق وتلاقي حنكها ريحته مسك .. إنما كله كوم والتركية كوم .. بياض على حمار على حلاوة ..

- إسمع يا عم خربوطلي .. أنا عاوز نازك .. ومش عاوز غير نازك .

فيضحك الخربوطلي ساخرًا :

- يادي نازك اللي خوت دماغي بيها يا سنقر .. يا ابني دي ما بتنزلش السوق .. أنا نزلتها يومها كده عشان اكسر مناخيرها .. أصلها طالعة فيها وفاكرة نفسها ياما هنا ياما هناك .. نازك دي ما تتباعش إلا لحريم السلطان .. أقل من كده ما افرطش فيها .

هنا ألقى سنقر بالماء الساخن الذي يغلي على جسد الخربوطلي :

مكتبتنا
WWW.MAKTBTNABIS.COM

- كده طيب خد بأه ..

فصرخ الخربوطلي من شدة حرارة الماء المغلي الذي أحرق ظهره :

- الله يلعنك يا سنقر ولعت لي ضهري .. آه .. آه ..

- هو انت تفهم في الحمام أكتر مني يا عم خربوطلي .. المية اللي بتغلي لما تنزل على ضهرك تطلع الجلخ ..

ثم صب كوبًا من الماء البارد والخربوطلي يصرخ والبخار يتصاعد من ظهره .

- آه .. المية تلج حرام عليك .. آه .. الله يلعنك .

- الميه الباردة بأه بعد الميه السخنه تخلي الجته تبربق وتتهري .

وظل الخربوطلي يصرخ ويلعن سنقر الذي تركه في ضيق وترك الحمام .

* * *

مكتبتنا
WWW.MAKTBTNABBIS.COM

الفصل الرابع

خرج السلطان للصيد ومعه الأمير شهاب الدين أحمد أمير شكار .. والأمير شكار هو أمير الصيد وهو الذي يتحدث عن الجوارح والطيور وغيرها وسائر أمور الصيد مع السلطان وكلمة شكار هي كلمة فارسية ومعناها الصيد .. فقد أبدع المماليك وتفننوا في إعطاء التخصصات التافهة ألقابًا فخمة .

كان الملك يتقدم الجميع وبجواره متأخرًا الأمير شهاب الدين .. وخلفه الخاصكية وهم المقربون من الملك الذين يدخلون عليه في خلواته بغير إذن .. وكان لهم شأن كبير في الدولة لقربهم من السلطان وكانوا دائمًا ما يتأنقون في ركوبهم وملبوسهم فيبدو المشهد وكأنه لوحة خيالية بديعة أبدعتها يد فنان قدير ..

قال الأشرف خليل للأمير شهاب :

- امش بنا يا أمير حتى نسبق الخاصكية .. هيا .

مكتبتنا
WWW.MAKTBTNABBIS.COM

وانطلق السلطان بفرسه وبجواره الأمير شهاب الدين .. وكأن السلطان كان يريد أن يتكلم معه على انفراد .. حتى غابا عن الجميع .. فقال له السلطان :

- أتعلم يا أمير .. إن أبي المنصور قلاوون لم يكن يحبني .

- كيف يا مولاي السلطان ؟!

- كان يحب أخي الملك الصالح علي ولقد سلطنه في حياته .. كان أبى يشعر دائمًا أنني السلطان الحقيقي ولكنه لم يكن يحب أن يعترف لي بذلك .. ولكنني ولدت سلطانًا .. رغم أنف الجميع .

- ولكن المنصور قلاوون يرحمه الله .. أجلسك على العرش في حياته ..

- أجلسني نعم ، ولكنه لم يوقع على المرسوم الملكي الذي يرسمني سلطانًا .. حتى مات .. ولقد طلبت عدة مرات في حياته من قاضي القضاة فتح الدين بن عبد الظاهر أن يعطيني المرسوم فكان يعيده لي في كل مرة بلا توقيع المنصور قلاوون .. وكان أبي السلطان قلاوون يقول لقاضي القضاة أنا ما أولي خليلًا على المسلمين ! وكأنه ندم على توليتي السلطنة .. ولكن السلطان امتنع أن يعطيني وقد أعطاني الله .

وبينما هما سائران وجدا طيرًا كثيرًا .. فرماه السلطان بالبندق .. فقتل عددًا كبيرًا منه وهــو في قمة النشوة والسعادة .. ثم التفت إلى الأمير شهاب الدين وقال :

- أنا جوعان .. معك شيء نأكله ؟

مكتبتنا
WWW.MAKTBTNA.COM

- معي فرخة ورغيف في المخلة .

- ناولني .. فأنا لم تنفتح شهيتي كما هي مفتوحة اليوم .

والتهم السلطان الفرخة والرغيف في دقيقة واحدة .. كان يبدو كأسد موفور الصحة ينقض على فريسة .. وانطلق بالفرس والأمير شهاب خلفه .. حتى وصلا إلى منطقة نائية بعيدة .. وترجل السلطان من على فرسه ليتبول .. وكان لصوت البول ضجة .. فأخذ يضحك ويولغ بذكره ويمازح الأمير شهاب الدين ..

- هل تعلم لماذا أحب الصيد يا أمير .. لأنني أحب النساء .. أحب المرأة التي تجهدني .. كما أحب الصيد الذي يجهدني ..

- ألا نعود يا مولاي .. لقد ابتعدنا كثيرًا !

- ابتعدنا عن ماذا يا أمير ؟! أنا في سلطنتي .. وكل هذه الدنيا ملكي بأراضيها وجبالها ووديانها وأشجارها وجواريها ونسائها ورجالها وغلمانها .. أتعرف يا شهاب الدين .. أشعر أحيانًا برغبة في البكاء من كثرة النعم التي أنعم بها الله عليَّ .. وتنتابني رغبة بأن أتخفى وأذهب متسللًا إلى أحد الخانقاوات وأنضم إلى الدراويش والصوفة والقلندرية .. أظل أتمايل مثلهم .. وأذكر الله .. وأحيانًا أخرى .. يركبني الشيطان فأحس أن بداخلي طاقة من الكراهية والغل لو خرجت لأحرقت الأرض بمن عليها .. إن الرؤوس التي قطعتها ووضعتها على أسنَّة الرماح ليمشي بها المشاعلية في شوارع مصر

مكتبتنا
WWW.MAKTBTNABIS.COM

ليتفرج عليها الناس والرؤوس الأخرى التي علقتها على باب زويلة .. أحيانًا أحس أنها تظهر لي في أحلامي أو في يقظتي .

- وهل تخاف منها يا مولاي ؟!.

- السلاطين لا تخاف يا شهاب الدين .. بل إنني كلما رأيتها .. ازدادت رغبتي في أن أقطع المزيد والمزيد من الرؤوس .. إن للقتل لذة يا أمير .. تمامًا كما نفعل الآن ونحن نقتل الطير .. ونصفق ونهلل .. وماذا فعل لنا الطير ؟!. فما بالك لو كان الرأس الذي تقطعه وتفصله عن الجسد رأس شخص تكرهه .. ضربة قوية واحدة بسيف بتار .. تلقي به مثل كرة على الأرض .. وانظر إلى الجسد وهو يترنح بلا رأس .. معجزة .. معجزة حقيقية .

وأمسك الأمير شهاب الدين برأسه وهو يبلع ريقه من الخوف .. فضحك السلطان وقال له مداعبًا :

- لا تخف يا أمير .. فرأسك ليست من الرؤوس التي تمتعني وهي تُجز بالسيف ..

وتنهد الأمير تنهيدة وقال :

- الحمد لله ..!

فضحك السلطان ومضى بفرسه إلى لا وجهة .. وخلفه الأمير شهاب الدين.

* * *

مكتبتنا
WWW.MAKTBTHABBY.COM

كان سنقر جالسًا على الأرض وقد وضع ورق الشجر أمامه وأخذ يفتته بيديه .. حتى صار مثل حبات الرمل ووضعه فوق الجوزة التي صنعها بيديه .. ثم أخذ يضع فوقها النار .. ويسحب أنفاسًا من الجوزة .. فيخرج الدخان من أنفه وفمه .

أما بانجو فكان يأكل من أوراق الشجر بنهم .. وسنقر في قمة الاستمتاع .

ما على مهلك يا بانجو .. بلاش الغباوة دي .. إحنا متسربعين على إيه .. ادينا قاعدين للصبح .

وأخذ نفسًا عميقًا جدًا وكتمه بصعوبة .. ثم أخرجه فاحمرت عيناه .. وسرى المخدر في عروقه وشرايينه .

بس .. بدأت تشتغل أهيه .. تعرف يا بانجو .. أنا لما باجي هنا .. بحس إن أنا بني آدم يا جدع .. بحس إن أنا ملك وإن الدنيا دي كلها بتاعتي .. بأراضيها وجبالها وحريمها وحميرها .. لا مؤاخذة يا بانجو يعني .. ما تقفليش ع الكلمة .. هوه انا بأتكلم غير معاك ؟! أنا أصلي لما باشرب الدخان ده باشوف حاجات غريبة .. لو قولت عليها لأي حد ح يودوني المورستان .. إنما أنا عاوز أسألك سؤال يا بانجو .. هي بلدنا دي ح تفضل ع الحال ده لحد إم.تى ؟ خمسين سنة كمان ؟! ميت سنة ؟! خمسميت سنة ؟! ألف سنة ! وح نعيش السنين دي كلها ملطشة كده برضه يا بانجو .. ساعات كده باغمض عيني وأسرح يا بانجو ..

مكتبتنا
WWW.MAKTBTNABIS.COM

أشوف مصر دي بلد حلوة .. وشوارعها نضيفة وناسها مؤدبين .. ساعات كده أتخيل إن الحاكم اللي ح يحكمنا مش ح ييجي غصب عن اللي خلفونا .. إنما .. إحنا اللي ح نجيبه .. نختاره من وسطينا .. ما تنهقش يا بانجو .. ماتتمهزأش بيا .. أنا عامل دماغ حلوه .. سيبني يا أخي .. حتى التهيؤات ممنوعة في البلد دي .. يا سلام يا بانجو لو تشوف اللي انا شايفه .. شايفها مليانة عدل وحب .. وكل واحد فيها واخد حقه .. ومحدش من المماليك يقدر ينزل ضرب في خلق الله بمناسبة ومن غير مناسبة .. والسلطان مالوش الخاصكية اللي بيحميهم ويسيبهم زي الكلاب المسعورة على الغلابة اللي زيي وزيك .

كان بانجو من كثرة ما أكل من أوراق الشجر المخدرة .. قد بدأ يترنح .. ثم نام على الأرض في سعادة .. نظر سُنقر نحوه .. وقال بيأس :

نام .. نام يا بانجو .. نام وانبسط .. ما هو أنا لولا مُحي اللي تاعبني ده كنت نمت زيك وضربتها ستين برطوشة .. انت تاكله وتنام وأنا أفضل أحرق فيه وأقعد آخد وادي مع نفسي لحد ما اتخمد .

* * *

وقف السلطان بفرسه .. وخلفه الأمير شهاب الدين يتأمل المنظر .. وهو يضحك حتى كاد يسقط من فوق الفرس فسنده الأمير شهاب الدين .. كان سنقر نائمًا بجوار بانجو واضعًا قدمه على جسمه وقد غاب كل منهما في سبات عميق ، وكلاهما يشخران في إيقاع موسيقيٍّ عجيب

مكتبتنا
WWW.MAKTBTNA881.COM

، وكأن كلًّا منهما يعزف على آلة وينتظر الآخر .. كان لتناغم شخيرهما ووضعهما في نومتهما ما يوحي بأشياء أضحكت السلطان والأمير .

قال السلطان خليل :

- أيقظه يا أمير لنعرف ماذا كانا يفعلان ؟!

ذهب الأمير شهاب .. وضرب سنقر بقدمه ليستيقظ .. فظن سنقر أن بانجو يتقلب .. فقال له في زهق :

- ما تبطل الرفس ده بأه يا بانجو .. وتنام في يومك ده ..

فصرخ فيه الأمير شهاب :

- استيقظ فالاد .. أنت في حضرة السطان الأشرف .

قام سنقر مفزوعًا وفتح عينيه فوجد السلطان أمامه .. السلطان بشحمه ولحمه .!. لم يصدق عينيه .. أخذ يفركهما ويقرص نفسه ويضرب خديه .. وهو يعلم أن ما يتعاطاه هو وحماره أحيانًا يجعله يرى بعض التهيؤات .. فكثيرًا ما رأى أنه في الجنة التي تجري من تحتها الأنهار .. وكثيرًا ما رأى الحور العين .. وكلم العصافير والطيور .. كل هذه أمور معقولة بالنسبة للتهيؤات ولكن .. أن يرى السلطان .. الأشرف خليل .. فهذا شيء فوق كل التهيؤات .. ربما كان يحلم ؟!

هذا ما قاله سنقر لنفسه .. ولكن السلاطين لا تظهر حتى في الأحلام .

- ماذا تفعل هنا فالاد أنت وحمار ؟!

مكتبتنا
WWW.MAKTBTNABIS.COM

كان هذا هو سؤال السلطان لسنقر .. الذي كاد يفقد وعيه حينما سمعه يتكلم .. أخذ سنقر يرفس بانجو محاولًا إيقاظه ليشهد معه اللحظة التاريخية العجيبة .. ويكون شاهدًا على أنه كلم السلطان أو أن السلطان يكلمه .. لن يصدق أحد ذلك حينما يحكيه بعد ذلك .. سيقولون إن سنقر مجنون .. أو أبله وسيسخرون منه .

- لماذا لا تجيب فالاد .. أنت أخرس .. إذا لم ينطق أقطع لسان فالاد .

ألقى سنقر بنفسه تحت قدمي السطان .. وأخذ يبكي ويضع التراب فوق رأسه :

- أنا مش مصدق يا مولاي السلطان .. مش مصدق .

وأشار السلطان إلى الجوزة التى كانت على الأرض بجانب سنقر :

- ما هذا فالاد .

- دى حشيشة يا مولاي .. حشيشة من اللي بتطلع في الشجر .. بانشفها وافركها واحط عليها النار .. وبعدين أشد .

- تشد ماذا فالاد ؟

- أشد الدخان وأخذه في نخاشيشي أكتمه .. وأقوم مطلعه .

- وعشان إيه إنت إعمل كده فالاد .. ده شيء جميل ؟

- عظمه يا مولاي .. روقان .. مزاج عالي قوي .

- ومين اكتشف هذا فالاد .

- ده بانجو الحمار مش انا يا مولاي .

مكتبتنا
WWW.MAKTEBTNAABH.COM

- أنا أحب جرب دخان فالاد .

- يا سلام .. ده انا اعمل لفخامتك حجر وصاية .. هوه انا في ديك الساعة .. اصطباحتك زي العسل .

وبدأ سنقر يعمل بسرعة .. يقطع الحشائش ويفركها ثم يكبسها في الحجر .. وأخذ يبكر الجوزة ليتأكد من دقة منسوب المياه بداخلها .. ثم وضع النار على الحجر .. وأخذ نفسًا فقال السلطان :

- ما هذا فالاد حيوان .. سلطان هو اللي يشرب دخان مش صعلوك .

- باسخنها لفخامتك يا مولاي السلطان .

أمسك الأشرف خليل بالجوزة .. وأخذ يشد أنفاس الدخان من قصبة الجوزة .. واستطعمه فأعجبه .

- هايل فالاد .. تمام .. واحد تاني فالاد .. اسمك إيه حيوان .

- سنقر يا مولاي .

ورصَّ له سنقر له حجرًا آخر .. وأعطاه قصبة الجوزة فردها له السلطان .

- سخن حجر فالاد .

كان طعم المخدر قد بدأ يروق لعظمة السلطان .. بينما كان سنقر يشد الدخان .. فتتلألأ النيران فوق الحجر مما أعجب السلطان غاية الإعجاب فقال له :

- أنا عيّن إنت في قصر في وظيفة دخانجي دار .. بس وظيفته يعمل دخان لعظمة سلطان .

مكتبتنا
WWW.MAKTBTNABIS.COM

هنا لم يتمالك سنقر نفسه وارتمى على يد السلطان وقدميه يقبلهما شاكرًا والسلطان يشد في الدخان وقد بدأ ينسطل ويضحك بهستيريا .

* * *

في مكان قريب كان الأمير بيدرا والأمير لاجين والأمير قراسنقر والأمير بهادر وجماعة من المماليك السلطانيين قد اجتمعوا وقرروا تنفيذ ما اتفقوا عليه .. فركبوا خيولهم وشدوا في أوساطهم تراكيش وسيوف ومضوا يبحثون عنه .. وقد أثاروا غبارًا كثيفًا حولهم وكأن خيولهم كانت تعرف ما في صدورهم .. إلى أن رأوا السلطان عن بُعد جالسًا يشرب الجوزة وبجواره سنقر والحمار والأمير شهاب الدين .

كان سنقر يحكي بعض النكات للسلطان وقد صارت علاقتهما ودية جدًا وقد جمع بينهما السطل وتخدر الجميع تمامًا .

قال سنقر بمودة وبلا تكليف : تصدق بالله يا مولاي السلطان .. انت طلعت راجل كده .. الناس فاكرة السلطان ده نكدي وكئيب ومكشر علطول .. محدش يعرف إن مولاي بحبوح وابن حظ .

فقال له السلطان : رص كمان فالاد سنقر .

هنا هتف سنقر سعيدًا .. للصبح يا بو السلاطين .. أنا في ديك الساعة لما أرص لك .. دي بلدك وده حشيشك .. واحنا كلنا عبيدك .

وقدم له الجوزة التي صار السلطان متمرسًا عليها .. أخذ يشد أنفاسًا قصيرة قصيرة كما كان يفعل سنقر ثم شد نفسًا طويلًا طويلًا ..

مكتبتنا
WWW.MAKTBTNABBIS.COM

وكتمه بداخله .. ثم أخرجه من أنفه وفمه معًا .. ونظر نحو سنقر وقال له : اطلب ما تشاء فالاد سنقر .

قال سنقر متوسلًا : نفسي .. نفسي في جارية يا مولاي .

فأجابه السلطان : سوق الجواري مليان بالجواري .

فقال سنقر شاكيًا : مغلاوانية ونصابين يا مولاي .. أنا رحت أخدت جارية رومية مربربة وبيضا وعليها لحم وشحم قد كده ووازنها ع الميزان طالعة 180 رطل .. أخدتها البيت بأقلعها طلعت كلها محشية خلاخيل وهدوم .. فاضية من جوه .. رجعتها علطول .. رميتها في وشه وأخدت فلوسي .

أخذ السلطان يضحك حتى كاد يستلقي على قفاه .

فقال له سنقر بجرأة ، وقد أزال المخدر كل الحواجز التي بينه وبين السلطان : ما تمسك نفسك بأه يا مولاي .. انت دماغك خفيفة ولا إيه ؟ إحنا لسه شربنا .. دا حنا يا دوب بنسخن يابو خليل .

كان المخدر قد لعب بعقل السلطان .. فأخذ ينظر نحو سنقر .. في ذهول .. ثم ينظر نحو بانجو مما أوقع قلب سنقر :

- فيه إيه يا مولاي .. سموك بتبص لي كده ليه ؟ أنا فيا حاجة غلط .

فصرخ فيه السلطان :

-انت فالاد .. ليه ياخد راس حمار ويحطها على راسك .. إنت تسخر مني .

مكتبتنا
WWW.MAKTBTNABRIS.COM

- راس مين يا عظمة السلطان .. أنا راسي أهيه .. وراس الحمار معاه .. أنا ما أخدتش حاجة منه .

- لازم يرجع راس حمار يا حيوان .

واستل السلطان سيفه شاهرًا إياه .. وسنقر يصرخ وهو يكاد يموت من الرعب .. لقد بدأت هلاوس المخدر تلعب في رأس السلطان .. ويبدو أن سنقر سيكون هو الضحية .. وفجأة نظر السلطان نحو الغبار الذي ظهر من بعيد وقد ظهر أنه قاصد نحو مكان السلطان وقال للأمير شهاب :

- ما هذا الغبار أمير شهاب ؟

فقال سنقر :

- تلاقي ناس عرفوا المطرح وعاملين دماغ ومولعين نار .. حاكم بلدنا دي مافيهاش حاجة بتستخبى .. يا خل .

قال السلطان لشهاب الدين :

- امتط فرسك واكتشف لي خبر هذا الغبار .. هيا .

فقام الأمير شهاب وامتطى جواده وانطلق قاصدًا مكان الغبار .. إلى أن وصل عنده فانقشع الغبار عن الأمير بيدرا والأمراء الذين معه .. فسألهم الأمير شهاب :

- ما الخبر يا أمير بيدرا ؟!

فأزاحه الأمير بيدرا من طريقه ولم يرد وتبعه الأمراء .. حتى وصلوا إلى السلطان .. الذي أدهشه مجيئهم .. وقبل أن يتحرك .. انهال

مكتبتنا
WWW.MAKTBTNABBIS.COM

الأمير بيدرا بسيفه وضربه على يده .. فانفجرت منها الدماء ووقعت على الأرض .

فصاح به الأمير لاجين :

- ويلك يا بيدرا .. الذي يريد السلطنة يضرب هذه الضربة .. أهكذا تريد ملك مصر والشام ؟!

ثم هوى لاجين بسيفه على كتف السلطان فوقع السلطان على الأرض وجاءه الأمير بهادر وأدخل السيف في مؤخرته واتكأ عليه إلى أن أخرجه من حلقه ثم تناوب الأمراء ضربه بالسيوف حتى أجهزوا عليه تمامًا .

كل هذا وسنقر ينظر إلى ما يحدث أمامه وقد انخلع قلبه وتسمر مكانه وكاد يسقط مغشيًا عليه فانبرى الأمير بهادر بعد فعلته الشنعاء وقال للأمراء .. مات الخليل .. وليحيا سلطاننا الأوحد بيدرا .. فباس له الأمراء الأرض في الحال وأظهروا له الطاعة والخنوع .. وسجد له سنقر مع الساجدين فالتفت نحوه بيدرا مستغربًا لوجوده وأمسك به :

- من أنت ؟ وماذا كنت تفعل مع السلطان فالاد صعلوك ؟

قال سنقر وهو يرتعد :

- كان عاوز يقتلني يا مولاي السلطان .. ربنا - سبحانه وتعالى - أراد لي أعيش على يديك .. هو يموتني وانت تحييني يا مولاي .

مكتبتنا
WWW.MAKTBTNABIS.COM

فضحك بيدرا ضحكة عظيمة .. وسنقر يرتعد من الخوف .. فأخرج بيدرا من مخلته صرة مليئة بالدنانير وألقى بها على سنقر .. وقال له :

- أنت وجه سعد فالاد .. أنت أول واحد يشوف أمير بيدرا سلطان مصر والشام .

فنظر سنقر إلى الكيس وهو يكاد يفقد عقله .. ثم قام وأخذ يدعو للسلطان الجديد ويهتف له :

- يحيا السلطان بيدرا .. يحيا السلطان الأوحد .. ربنا يحرق السلطان الأشرف ويكحمه مطرح ما راح .

ومضى الركب وهتافات سنقر تتابعه والأمراء يضحكون في انتصار هكذا تغير حكم مصر في لحظة .. كان سنقر وحماره شاهدي عيان عليهما .. حتى وإن كانا واقعين تحت تأثير المخدر فإن الحدث الجلل الذي شهدا وقائعه كان بمثابة الإفاقة الكبرى قتل السلطان الأشرف خليل وتولى الأمير بيدرا السلطنة .. ورزق سنقر بألف دينار وبدأت مصر عهدًا جديدًا ..

* * *

مكتبتنا
WWW.MAKTBTNA.COM

الفصل الخامس

كان سنقر عائدًا فوق حماره بانجو الذي كان يمشي ببطء أقرب إلى التوقف .. وسنقر يكلمه كالعادة وبانجو يومئ برأسه .. وأهل الشارع ينظرون نحوهما ساخرين .. لم يكن شيئًا قد تغير في الشارع بعد المعركة الطاحنة التي كانت دائرة هنا بالأمس .. فتحت الدكاكين .. واتخذ الباعة أماكنهم وحركة البيع والشراء انتعشت وتلك هي عبقرية المصريين .. كانوا يعرفون أن المماليك بعد المعارك يهدأون .. ويتصالحون .. وتلك هي الفترة التي يلتقط فيها المصريون أنفاسهم .. كانت كل اللافتات المعلقة ترحب بعودة السلطان الأشرف خليل من رحلة الصيد الميمونة .. فالسلطان في رحلة عودته غالبًا يمر من هنا .. والمصريون يعرفون جيدًا كيف يرحبون بسلاطينهم وكيف يهتفون لهم في أتفه المناسبات .

ولكن لم يكن أحد يعلم أن السلطان قد قتل .. إلا سنقر .. كان هو الوحيد الذي رأى الأشرف خليل يسقط مضرجًا في دمائه .. والأمجد

مكتبتنا
WWW.MAKTBTNABIS.COM

بيدرا يصبح سلطانًا .. فنزل من على حماره .. وذهب نحو اللافتات وأخذ يمزقها ويبصق عليها ويضربها بمركوبه .

- شيل يا عم بلا الأشرف خليل بلا زفت .. هو ده سلطان ده .. ده كبيره عربجي .

والتف حوله الناس وتجمهروا محاولين إثناءه عما يفعل :

- يا سنقر يا مجنون .. إيه اللي بتعمله ده يابن المجنونة .
- إخرس يابني ما تودينا ش في داهيه .
- سمعتم .. سنقر بيهين الذات السلطانية .. اقفلوا بقه .. إمسكوه .
- ده حماره بيفهم أكتر منه ..
- دلوقتي حرس السلطان ييجوا يقطعوه نساير ويرموه للكلاب .

ولم يكن العوام في دفاعهم عن السلطان يدافعون عن شخصه بقدر ما يدافعون عن مصالحهم فلا شك أن ما فعله سنقر سيصل إلى مسامع السلطان .. ويمكن أن يسحقهم جميعًا بذنب هذا المعتوه سنقر .

والحقيقة .. أن سنقر لم يكن معتوهًا ولا مخرفًا بل كان هو العاقل الوحيد .. فلم تمر ثوان معدودة .. حتى دخل المنادي راكبًا حماره .. وهو يعلن على الملأ للناس في الشارع :

- يا أهل مصر .. الحاضر يعلم الغايب .. إن السلطان الأشرف خليل قُتل وإن السلطان الأمجد بيدرا هو سلطان البلاد ورب العباد والجالس على سرير الملك .

مكتبتنا
WWW.MAKTBTNABBIS.COM

وفجأة تحول الشارع كله .. حينما علم بأن الأمجد قد تسلطن .. وتغير موقفهم .. فضج الناس له بالدعاء .. ودقت له البشائر في القلعة .

ورقص العامة وغنوا وحملوا سنقر فوق أكتافهم وقال أحدهم .. سنقر ده فيه شيء لله .. ربنا ألهمه .. وأخذوا يجهزون الهدايا التي سيقدمونها للسلطان الجديد ومماليكه وعلقت الزينات في شوارع القاهرة احتفالًا بمجيء الأمجد بيدرا وجلوسه على سرير الملك .. وجلس سنقر على دكة وحوله أهل الشارع يحكي لهم كيف قابل السلطان بيدرا في لحظة توليه السلطنة حينما استل البطل سيفه وغمده في قلب السلطان الظالم الأشرف خليل .. وهم يصفقون ويهللون .

* * *

كان الأمير زين الدين كتبغا هو رجل الدولة الحقيقي .. أسمر اللون قصيرًا دقيق الصدر قصير العنق .. له لحية صغيرة في حنكه لم يكن يبدو عليه أمارات الفروسية والفتوة البادية على كل أمراء المماليك .. وإنما كان يبدو رجل سياسة أكثر منه رجل حرب .. والحقيقة أن كتبغا لم يكن أصله تركيًا أوجركسيًا كما هي العادة في كل الفرسان المماليك .. وإنما جاء إلى مصر مع التتار محاربًا مع هولاكو الذي كان صهره .. وحينما هزم التتار أسر كتبغا مع من أسر من التتار وأخذه السلطان قلاوون واعتبره من مماليكه .. فها هي مصر أتاها كتبغا محاربًا غازيًا مع التتار .. والآن صار هو الذي يحكمها ويدافع عنها الغزاة .. وكانت كلمته نافذة ورأيه قاطعًا

مكتبتنا
WWW.MAKTBTNABIS.COM

وكان هو الوحيد الذي يعمل له بيدرا ألف حساب .. فلما عاد بيدرا إلى قصر الملك .. سأله بيبرس أمير جاندار :

- يا خوند بيدرا .. أهذا الذي فعلته كان بمشورة الأمراء ؟!

- نعم أنـا قتلتـه بمشورتهم وحضورهم .. وها هم كلهم حاضرون .. لقد قتلت الأشرف لأنـه كان مستهترًا متطاولًا على أمراء الدولة مهملًا لأمور المسلمين قليل الدين .. يشرب الخمر في رمضان ويفسق .

- وهل كان عند الأمير كتبغا من هذه المسألة علم .

- نعم .. وهو أول من أشار علينا بها .

لم يكن الأمير كتبغا يعلم بقتل السلطان ولم يكن يقبل ذلك .. كان كتبغا رجلًا حصيفًا عاقلًا .. فلما عرف بما حدث .. طلب عددًا كبيرًا من المماليك السلطانية .. ونحو ألفي فارس وجماعة كبيرة من العسكر وخرجوا جميعًا يريدون قتال بيدرا .. ورتب كتبغا جماعة ترمي بالنشاب وتقدم بمن معه وحملوا على بيدرا حمله منكرة .. وقصد الأمير كتبغا .. بيدرا وقال له : يا بيدرا .. أين السلطان ؟! ماذا فعلت بسلطاننا ؟!

ورماه بسهم فتبعه البقية بسهامهم وبدأت المعركة بين الفريقين حتى فعلوا به ما فعله بالسلطان الأشرف وحملت رأس الأمير بيدرا على رمح وبعث بها إلى قلعة الجبل ووجدوا في جيب بيدرا ورقة ..

مكتبتنا
WWW.MAKTBTNABBIS.COM

كان مكتوبًا فيها .!. ما يقول السادة الفقهاء في رجل يشرب الخمر في شهر رمضان ولا يصلي ؟ ويفسق بالغلمان فهل على قاتله ذنب ؟ فكتب جوابها .. " يقتل ولا إثم على قاتله" يبدو أن الأمير بيدرا حينما قرر قتل الأشرف خليل كان يريد فتوى بقتله فعرض الأمر على الفقهاء الذين يجيزون له قتل السلطان – ما أعجب المماليك .. برغم كل هذا البطش والقسوة واللاإنسانية يبحثون دائمًا عن غطاء ديني أو مبررٍ إسلاميٍّ .. لأفعالهم الشنعاء ..

* * *

واتفق الأمراء بعدها على إقامة الملك الناصر محمد بن قلاوون سلطانًا بعد قتل أخيه الملك الأشرف خليل فأحضروه وكان طفلًا عمره 9 سنوات وأجلسوه على سرير السلطنة .

وصار زين الدين كتبغا هونائب السلطنة بالديار المصرية والأمير علم الدين سنجر الشجاعي وزيرًا ومديرًا للمملكة .. وهكذا شغلت المقاعد بسرعة على الطريقة المملوكية .. فجاء كتبغا مكان بيدرا .. وجاء الشجاعي مكان الوزير ابن السلعوس .. طرفي المؤامرة التي أدت في النهاية إلى قتل السلطان .. وكان الشجاعي رجلًا طويلًا أبيض اللون أشقر اللحية أزرق العينين رومي الجنس ظالمًا قاسيًا .. إذا ظفر بأحد لا يرحمه .. وكان موكبه في شوارع القاهرة يضاهي موكب السلطان من الفخامة والأبهة .. وكان إذا شرع في عمل ينجزه في أقل وقت ممكن وفي

مكتبتنا
WWW.MAKTBTNABIS.COM

أحسن صورة .. حتى لو كان الثمن أرواح العامة المساكين الذين يعملون تحت إمرته بالسخرة .. وحينما كان موكولًا إليه عمارة البيمارستان المنصوري ذلك المستشفي الضخم في بين القصرين .. أنجزه في مدة يسيرة .. وكان يستعمل فيه العمال والصناع ممسكًا ببندقيته يطلقها على العامل الذي يتكاسل أو يتباطأ حتى لو كان واقفًا فوق سقالة فيسقط من هذا الارتفاع عند قدميه فلا يكترث .. ويصرخ في العمال .. لماذا توقفتم .!. اشتغل فالاد فلاح صعلوك .. إشتغل .

ثم قبض الأمراء على الوزير ابن السلعوس .. وضربوه ضربًا شديدًا وعذبوه وأخرجوا منه مالًا كثيرًا .. ثم أودعوه سويقة الصاحب في المدرسة الصاحبية .. مع أمير مملوك يدعى لؤلؤ كان يضربه كل يوم بالمقارع ويخرجه على حمار كل يوم فيقف له أراذل الناس في طول الطريق ومعهم المداسات المقطعة فينزلون به العذاب أنواعًا ويسمعونه كل مكروه .. وكان لؤلؤ هذا قبل ذلك ممن أنشأه ابن السلعوس وساعده وأحسن إليه وولاه شاد الدواوين بمصر وكان لؤلؤ يقف في خدمته مطيعًا متفانيًا فلا يسميه سيده ابن السلعوس إلا لؤلؤ مدللًا إياه معجبًا به فقدر الله أن وقع ابن السلعوس في يده .. فبالغ في إهانته .. واتقِ شر من أحسنت إليه .

واشتد الصراع بين أمراء المماليك على الحكم .. فالأمير كتبغا ومماليكه صاروا في جبهة ، والأمير سنجر الشجاعي ومماليكه في جبهة

مكتبتنا
WWW.MAKTBTNABBIS.COM

أخرى .. ودارت المعارك بين الفريقين .. وقد احتل الشجاعي القلعة وحاصرها كتبغا وأمراؤه .. وخشيت أم السلطان الناصر على حياة ابنها الذي لم يكمل التاسعة من عمره .. وكانت تحبه حبًّا جمًّا فطلعت خاتون أشلون أم السلطان على سور القلعة .. وبجرأة الرجال واجهتهم :

- ماذا تريدون منا يا أمراء المماليك .

فرد كتبغا :

- ما لنا غرض إلا القبض على الشجاعي وإخماد الفتنة .. ولو لم يبق من بيت أستاذنا قلاوون الكبير إلا بنت عمياء لولياناها علينا وكُنا مماليكها .. لاسيما وولده الناصر حاضر وفيه كفاية وهو سلطاننا ونحن كلنا مماليكه .

كان السلطان شبه أسير في القلعة .. طفل صغير تنازعت من حوله المماليك الكبار .. وكان الخلاف قد احتدم بين كتبغا والشجاعي وسبب الخلاف هو اختفاء الأمير حسام الدين لاجين المتهم بقتل الأشرف خليل مع بيدرا .. لم يكن أحد يعرف أين ذهب ؟! وكان الشجاعي يتهم كتبغا بإخفائه وحمايته .. ولكن كتبغا نفسه لم يكن يعرف أين لاجين ؟

والحقيقة أن لاجين حينما تأزم الموقف بهذه الصورة .. وتلاطمت الأمواج فوق رأسه فضل الاختفاء والهروب حتى يرى في النهاية على

مكتبتنا
WWW.MAKTBTNABRIS.COM

أي شاطئ سترسو سفينة الحكم .. ذهب إلى جامع أحمد بن طولون .. هو والأمير قراسنقر أحد المشاركين في قتل الأشرف خليل وطلعا إلى المئذنة واستقرّا فيها .. وكان لاجين يعلم أن مصر كلها تبحث عنه .. قال له قراسنقر مرتعدًا وهما مختبآن في المأذنة المهجورة ..

أشعر أن الموت قريب يا أمير لاجين .. فابتسم لاجين ابتسامة عميقة .. وقال له :

تجلد يا قراسنقر .. إن الموت يخطئني دائمًا ..

ثم نظر إلى الجامع الذي كان قد صار خرابًا تسكنه الفئران والوطاويط وقال:

أتعلم يا قراسنقر .. إذا نجانا الله من هذه الشدة .. وصرت شيئًا في مصر وعاد لي نفوذي ومكانتي سأعمر هذا الجامع وأجعله أعظم جوامع القاهرة .

* * *

تأزم الموقف أكثر بالقاهرة .. مماليك كتبغا يحاصرون القلعة .. ومماليك الشجاعي بداخلها ولكن معهم السلطان الصغير .. الناصر محمد بن قلاوون .. وكانت أمه أشلون خاتون ترتجف من الرعب .. وتحيطه بذراعيها لا تفارقه .. بينما كان الولد رغم أنه لم يبلغ التاسعة مدركًا لما يحدث حوله .. إن أولاد قلاوون جميعًا يولدون وبهم موهبة

مكتبتنا
WWW.MAKTBTNABRIS.COM

السلطنة .. دخل الشجاعي عليه في قاعة السلطنة .. فلم يخشه السلطان الطفل .. بل بادره بالسؤال وكأنه سلطان كبير قائلًا :

- يا عمي .. إيش آخر هذا الحال الذي أنتم فيه .

فقال الشجاعي متملقًا :

- هذا كله لأجلك يا ابن أستاذي .. إن كتبغا ومماليكه يقصدون خلعك من السلطنة ويمسكونني أنا ويقتلونني ..

فقال له الطفل بذكاء أكبر من سنه بكثير وكأن الذي يتكلم أبوه المنصور قلاوون الكبير :

- يا عمي أنا أديلك نيابة حلب .. وتسيب مصر وتستريح من هذا الحال كله .

هنا أدرك الشجاعي أن الذي يكلمه مجرد طفل لم يبلغ التاسعة فشعر بغصة في حلقه .. فكشر عن أنيابه وصرخ فيه :

- أنت طفل صغير .. ما تفهم شيء .

واقترب الشجاعي منه في عصبية فانقض عليه مماليك السلطان وأمسكوه وقيدوه وخرجوا به وهو يسب ويلعن في قلاوون وآل قلاوون جميعًا .. ولم يتمالك المماليك أعصابهم .. فانهال أحدهم على رأسه بالسيف فقطعها بضربة واحدة .

مكتبتنا
WWW.MAKTBTNABBI.COM

وأمر الأمير كتبغا بأن تعلق رأس الشجاعي على رمح ويطاف بها في مصر والقاهرة .. فطافوا بها والمشاعلية تنادي عليها .. هذا جزاء من يرمي الفتنة بين الملوك وكان أكثر الناس يكرهون الشجاعي من ظلمه .. فصاروا يعطون المشاعلية شيئًا من الفضة ويأخذون رأس الشجاعي .. ويدخلون بها عندهم في الدار ولا يزالون يصفعونها بالنعال والقباقيب حتى يتشفوا منه .. بل إن بعضهم كان يبول على رأسه .. وظل هذا يحدث لثلاثة أيام متوالية .. حتى قيل إن المشاعلية ربحوا مالًا كثيرًا من هذه الحادثة .. إن المصريين ربما يصبرون على الظلم والقهر كثيرًا .. ولكنهم لا ينسون .. ولذا فانتقام العوام وثورة الشارع رهيبة .. ولكن من الذي يعتبر ؟!

وهكذا صار الأمير زين الدين كتبغا هو نائب السلطنة .. والقائم وحده بجميع أمور الدولة ، وليس للملك الناصر من السلطة إلا اسم الملك وقام كتبغا بالقبض على كل الأمراء الذين تآمروا لقتل الأشرف خليل ، وقطعت أيديهم بالساطور على قرمة خشب بباب القلعة وسمروا على الجمال ومروا بهم على أبواب دورهم فخرجت جواريهم ونساؤهم حاسرات يلطمن وقد شقوا الثياب وعظم صياحهن ، وهكذا فعلت جواري الملك الأشرف اللاتي طفن في الشوارع بالنواحات يقمن المآتم .. فلم يمر بمصر أشنع من تلك الأيام .

* * *

مكتبتنا
WWW.MAKTBTNA.COM

الفصل السادس

تعطل العمل في سوق الجواري طوال الأيام الماضية .. وما كان ليتعطل لو أن شعب مصر كله قتل .. إنما المسألة هنا مختلفة .. فالذين قتلوا هم السلطان وبعض أمراء المماليك .. ولذا فالحزن واجب والحداد مسألة مفروضة .

وكان الخربوطلي النخاس يعض على أصابعه من فرط الغيظ لوقف الحال .. ولكن شخصًا آخر كان ينتظر بفارغ الصبر انتهاء فترة الحداد وعودة سوق الجواري مرة أخرى .. هذا الشخص هو سنقر .. الذي أغلق على نفسه باب الحمام .. ولم يخرج منذ مقتل السلطان .. وكم كانت سعادته حينما فتح الصرة التي ألقى بها له الأمير بيدرا فوجد بها ألف دينار! وكأن الله أراد أن يعطيه ما يريد .! فقتل الأمير بيدرا السلطان الأشرف حتى يجد سنقر أمامه .. فيعطيه المال الذي سيمكنه من أن يشتري نازك.. أجمل امرأة رآها في حياته.. ولكن.. متى تفتح الأسواق؟!

مكتبتنا
WWW.MAKTBTNABBIS.COM

إن الألف دينار التي بحوزته .. يستطيع أن يشتري بها الشارع كله بحوانيته وبضائعه .. يستطيع أن يشتري قصرًا .. ولكن ما قيمة كل هذا بلا نازك ؟!

لم يستطع سنقر أن يغلق عينيه في تلك الليلة كان مؤرقًا قلقًا يتقلب طول الليل يريد للصبح أن يطلع وللشمس أن تظهر .. ولكنها على ما يبدو كانت هي الأخرى .. مثل نازك .. تتدلل عليه .. كان سوق الجواري سيبدأ العمل في الصباح .. أخيرًا .. قالها سنقر لنفسه .. وهو يتنهد .. ولم يكن قد علم شيئًا عن التطورات التي حدثت بمصر في الأيام القليلة الماضية من قتل بيدرا وتولي السلطان الناصر محمد بن قلاوون السلطنة .. كان قد أغلق حمامه عليه ولا يخرج إلا حيث أشجار البانجو هو وحماره .. ويظل يشد في أنفاس الدخان طول اليوم ثم يعودان مخدرين .. وقد فقدا الإحساس تمامًا بما حولهما .. وكان يعرجان كل يوم على سوق الجواري .. ليجده سنقر مغلقًا فيعود محبطًا يائسًا .. حتى علم أنه سيفتح أبوابه في صباح الغد .. ومنذ علم ذلك لم يستطع أن ينام .. كان يشعر أن نازك هي قدره وهي المكافأة التي يكافئه بها الله .. لقد تغير حكم مصر من أجل أن تصبح نازك من نصيبه .

كان الخربوطلي النخاس واقفًا كعادته يعرض بضاعته من الجواري مبالغًا في وصفهن مهيجًا مشاعر المتفرجين .. أما الجواري فقد بالغن في عريهن ورقصهن ودلالهن .. فالأسواق حينما تغلق لفترة .. ثم تفتح

مكتبتنا
WWW.MAKTBTNABRIS.COM

بعد غياب .. تتراكم الجواري عند النخاس ويقل الدخل وتزيد المصروفات ؛ مما يجعل النخاس راغبًا في البيع بأي ثمن وبسرعة لكي يحصل على أي أموال بعد ما حدث من غلق الأسواق وقطع العيش وانقطاع الرزق .

قال الخربوطلي مشجعًا للناس :

- ياللا .. النهاردة الفرصة الكبيرة .. قرب .. قرب .. اللي حياخد جارية بيضا ياخد معاها جارية سودا هدية .. ببلاش .. ببلاش ..

كان الناس يرمقون الجواري بنظراتهم دون اهتمام .. فلم تكن حالة الكساد قاصرة فقط على سوق الجواري .. كل الأسواق كانت مغلقة وكل الأعمال كانت معطلة .. ولم يكن أحد عنده الاستعداد ليفرط في دينار واحد في تلك الأزمة الاقتصادية الطاحنة .. أما المماليك وهم الزبائن الأساسيون بالنسبة لسوق الجواري فهم في فترة انتقالية للسلطة ومشغولون كل منهم بتثبيت مركزه وتوطيد مكانته عند الأمير أو الوزير أو السلطان .. لم يكن في مصر سوى سنقر الذي انتظر على أحر من الجمر حتى يفتح السوق وهرول إليه مدفوعًا بشوق عارم نحو نازك.

وبجوار الخربوطلي .. وقف شركس ابنه .. وهو شاب في نحو العشرين من عمره .. قصيرًا وخجولًا تبدو على وجهه علامات الطيبة .. ملامحه مصرية لأمه المصرية .. لم يكن يشاركه النداء على الزبائن ..

مكتبتنا
WWW.MAKTBTNABRIS.COM

كان يبدو عليه الحزن الشديد .. يمسح دموعه في أسى .. وأبوه يعنفه بغلظة ووحشية :

- علي الطلاق من أمك لو ما بطلت عياط يا شركس لاكتفك وابيعك واخلص منك ومن وشك الفقر .. ده احنا ما استفتحناش .. اصطباحتك زي وشك .

قال شركس باكيًا :

- يا بويا .. انت عارف إن أنا بحبها ومقدرش اعيش من غيرها .. نزلتها تتباع ليه ؟ ما الجواري كتير .. إيشمعنى دي يعني .. إيشمعنى زيتونة ؟!

فصفعه الخربوطلي على وجهه غاضبًا :

- طيب إيه رأيك يا روح امك دي أول واحدة ح اخلص منها .. ودي إيه اللي عاجبك فيها يا اهبل دي حبشية سودة عاملة زي العفريتة .
- يا بويا .. عفريتة عفريتة .. بس هي دي اللي عاجباني .
- ياد يا تور دي بضاعتنا وشغلنا .. حد يبص لحاجة عنده في الدكان وبعدين سايب اللي عندك ده كله وماسك لي في زيتونة .. ده انا أخاف تطلع لي بالليل .
- طيب اسمع يا بويا .. إنت مش بتقول اللي ياخد جارية بيضا ياخد السودة ببلاش .

مكتبتنا
WWW.MAKTBTNABIS.COM

- أيوه عشان نمشي أي حاجة .
- تبأة زيتونة ببلاش .! خلاص .. أنا ح اشتريها .
- وانت حيلتك حاجة يا روح أمك .
- ما انا ح أشتريها بتمنها .. ببلاش .. مش ح اديلك حاجة .. ما انا ابنك برضه ومش ح تغلى عليا .

فانهال الخربوطلي على قفا شركس غاضبًا :

- أهو نبرك وقرك ده ع الصبح اللي واقف حالي .. إخرس يا واد اجري ولع شوية البخور دول .. وافقع لي عين العفريت اللهي تتفقع عينك .

أخذ شركس ينثر البخور هنا وهناك وهو يبكي في صمت .. ويتبادل النظرات الهائمة مع زيتونة الجارية السوداء الجالسة تنظر هي الأخرى نحوه نظرات بريئة رائعة .

ودخل سنقر بحماره على الخربوطلي .. واثقًا من نفسه وفي يده الصرة قابضًا عليها ، ونظر نحو الجواري المعروضات فلم يجد نازك ؟! فشعر بقبضة في قلبه ، وذهب نحو الخربوطلي وقال له متلهفًا :

- حاج عبد الكريم .. فين نازك ؟!
- سيبني في حالي يا سنقر .. مش ناقصك ع الصبح .. أنا ح ألاقيها من وقف الحال ، ولا من الواد العبيط اللي ربنا بلاني بيه ، ولا منك انت راخر .

مكتبتنا
WWW.MAKTBTNABBIS.COM

- يا حاج .. أنا عاوزها .. أنا ح اشتريها .. وفلوسي جاهزة .

- فلوس إيه يابو فلوس .. وانت تقدر على نازك .

ثم نظر إلى الصرة التي في يده .. وسال لعابه :

- اسمع يا سنقر .. أنا ح أديلك حاجة حلوة .. بالأربعين دينار اللي معاك .. خد الجارية الحبشية اللي هناك دي .. زيتونة وطعمها أطعم من الزيتون .

- يا عم انا مش غاوي مخلل .. أنا عاوز نازك .

- نازك مش عندي دلوقت يا عم .. لسه ضاربها علقة عشان أأدبها .. ما قلت لك دي بنت لسانها طويل ومش ح تريحك وبعدين هوه انت معاك تمنها يا فقري انت راخر .

نظر سنقر حوله في ريبة ثم همس للخربوطلي مشيرًا إلى الصرة التي في يده .

- أنا جايب لك ألف دينار .

كاد الخربوطلي يسقط من هول المفاجأة حينما سمع الرقم .

- كام .! وجيبت الفلوس دي كلها منين ياد يا سنقر .

- مالكش دعوة بأه يا حاج عبد الكريم .. فلوسك معاك وجاريتي في إيدي .. بورقها .. ح تخلص ولا اشوف نخاس تاني .

- لا يا سنقر .. نازك بتاعتك .

مكتبتنا
WWW.MAKTBTNABRIS.COM

- أعاين الأول .

هنا صرخ الخربوطلي في ابنه شركس :

- واد يا شركس .. خد عمك سنقر في الوكالة فوق .. وطلع له نازك يشوفها بس .. لا يكلمها ولا تكلمه .

- وزتونة يا بويا أبوس رجلك ما دام ربنا فرجها ونازك ح تتباع .. خللي زتونة .

- الله يخرب بيت زيتونة على اليوم اللي جيبناها فيه .. ياد انجر مع عمك سنقر .

ورفسه بقدمه .. فسقط على الأرض ثم قام مودعًا زيتونة بعينيه ومضى هو وسنقر والحمار .

* * *

في الطريق إلى الوكالة .. كان شركس يبكي بكاءً مرًّا .. فسأله سنقر :

- مالك يا شركس بتعيط ليه ؟!

- أبويا عاوز يبيع زيتونة .

- الجارية الحبشية .. طيب ما يبيعها .

- بحبها يا سنقر .

- ما يديهالك ؟!

مكتبتنا
WWW.MAKTBTNABBIS.COM

- يديهالي ! انت مش عارف أبويا .. أبويا لو طال يبيع أمي كان باعها .. ما تديهالي انت يا سنقر .

- واديهالك إزاي .. هي ملكي ؟!

- أبويا بيدي جارية سودا ببلاش على أي جارية بيضا تتباع .. خد نازك وعليها زيتونة .. وبعدين اديهالي .

نظر سنقر نحو شركس باسمًا وقد أحس بمشاعره تجاه الجارية التي يحبها وقال له :

- والله لو خلصت في نازك النهاردة .. لاديلك زيتونة يا شركس .

هنا انحنى شركس على يد سنقر يقبلها .

- ربنا يخليك يا سنقر .. إنت كان لازم تكون مملوك .. لأ .. مملوك إيه .. كان لازم تكون أمير .. سلطان .

* * *

وفتح شركس الباب الخشبي الضخم بمفتاح في يده .. ثم دفع الباب ودخل وخلفه سنقر والحمار إلى صحن الدار الذي كان محاطًا بحجرات رديئة ضيقة وعالية في الدور الثاني تشبه السجون مغلقة بقضبان حديدية وقفل وترباس .. كان قلب سنقر يخفق وصدره يعلو ويهبط بينما كان شركس ينادي أمه .. وهي سيدة سمينة قوية مخيفة وحازمة :

- يامه .. طلعي نازك .. جالها زبون .!

مكتبتنا
WWW.MAKTBTNABIS.COM

فقالت أم شركس .. وهي تطل من خلف القضبان والجواري جالسات خلفها يتزينَّ ويضعن المساحيق :

- زبون .. هوه فين الزبون ده ياواد يا شركس .

نظر لها سنقر مغتاظًا وقد أحس بالإهانة لأنها تجاهلت وجوده :

- ما انا قدامك أهه يا أم شركس .. ولا انا مش شكل زبون يعني .. أنا وابنك والحمار .. ح يكون الحمار اللي جاي يشتريها .. ما تقول لأمك تلم نفسها بأه .

- وده معاه يدفع يا واد يا شركس ؟ ولا جاي يبصبص ويمشي .

هنا فقد سنقر صبره .. وقال في غيظ :

- يا أم شركس انا جاي أشترى جارية .. مش ح نقضيها ظُرف وتلقيح كلام من ورا البيبان .

هنا نادت أم شركس الجواري اللاتي يجلسن وراءها :

- بت يا نازك .. تعالي يا بت .. اتعدلي في مشيتك يا مقصوفة الرقبة .. ثم أردفت ساخرة وهي تتأمل سنقر بلا اقتناع :

- قال إيه .. هئ هئ .. زبون .

وتحركت نازك من بين الجواري .. حتى ظهرت لسنقر من خلف القضبان كشمس أشرقت فجأة .. فأضاءت المكان بنورها .. انسدل شعرها على عينيها فأزاحته بيديها الرقيقتين ونظرت إلى سنقر نظرة ..

مكتبتنا
WWW.MAKTBTNA.COM

جعلته يتسمر في مكانه .. شعر سنقر أنه يحلم .. ولأول مرة أحس أنه في الجنة رغم أنه لم يتناول اليوم المخدر كما يفعل كل يوم هو وبانجو .. مجرد نظرتها نحوه سطلته .

ابتسمت نازك وهي تنظر نحو سنقر .. وحماره .. وسألته :

- انت مين ؟!

فقال سنقر هائمًا :

- أنا .. أنا .. أنا جاريتك سنقر .. أقصد خدامك سنقر .

ضحكت نازك ضحكة زادتها جاذبية وعذوبة .. وعادت لتسأله :

- وجاي تشتريني لمين يا سي سنقر ؟

فقال لها سنقر بحب ورغبة :

- لنفسي .. ليا انا لوحدي يا نازك .!

اندهشت نازك .. فكيف لهذا الصعلوك أن يملك ثمنها ؟!

- ليك انت ؟! مش ممكن .

- يوضع سره في أضعف خلقه يا نازك .

- وانت بتشتغل إيه يا سنقر .

- هوه مين اللي جاي يشتري مين ؟ ده المماليك لو قبضوا عليا مش ح يسألوني الأسئلة دي كلها؟ أنا يا ستي سنقر الحلاق وصاحب حمام .

مكتبتنا
WWW.MAKTBTNABRIS.COM

- صاحب حمام ؟! وجاي تشتري جارية ؟! انت لاقي تاكل ؟

- وبعدين بأه ؟! دي ح تبتديها بتقطيم .! إحنا ح نقعد نتكلم من ورا القضبان كده .. حرام الوقت اللي بنضيعه ده يا نازك ؟! أنا ح اروح ادفع للخربوطلي وانتي جهزي نفسك .. أنا مش فاهم انتي بتضحكي على إيه ؟ هي عبيطة ولا حاجة يا شركس ؟ ح ادفع ألف دينار في جارية عبيطة ؟!

كانت نازك منفجرة في الضحك وهي تنظر نحو سنقر وحماره وهما خارجان وخلفهما شركس .. وهو يوصي سنقر .

- والنبي يا عم سنقر ما تنسى زيتونة .. إنت وعدتني .. ربنا يخليك يارب .

* * *

في الطريق إلى الحمام .. أربعة كانوا في قمة السعادة .. الفرحة كادت تطير بعقولهم وأكثرهم سعادة طبعًا كان سنقر الذي دفع الألف دينار .. وأخذ نازك وحقق الحلم البعيد المنال وشركس الذي استطاع عن طريق سنقر أن يخلص زيتونة من قبضة أبيه النخاس وزيتونة أيضًا كانت سعيدة .. فهي تحب شركس وتشعر بالاطمئنان حيث يكون قريبًا منها وكثيرًا ما دافع عنها حينما كان أبوه النخاس يضربها بالكرباج ، وكان هو يتلقى الضربات عنها .. هي لا تعرف الحب .. فالجواري لا يعرفن الحب .. وإنما يعرفن الاطمئنان وهي مطمأنة ..

مكتبتنا
WWW.MAKTBTNABBIS.COM

وبانجو أيضًا كان سعيدًا لأنه يحمل على ظهره نازك .. فقد عاش مع سنقر قصة حبه كاملة .. وأيام وجده وسهره وهيامه بها .. وها هي الآن فوق ظهره يحملها له .

كلهم كانوا سعداء .. إلا نازك .. فبرغم أنها تخلصت من بطش الخربوطلي وجبروته وقسوته .. وتخلصت من مضايقات المارة في السوق وهم يمدون نحوها أياديهم ويتحسسونها بحيوانية مقززة .. إلا أنها كانت حزينة ومحبطة .. فكثيرًا ما كانت تحلم أن فارسًا وسيمًا قويًا سيأتي ذات يوم ويشتريها ثم يحملها على حصانه إلى قصره المنيف لتعيش إلى جواره في عز ورغد ورفاهية .. وإن لم يأت الفارس فليكن مملوكًا من مماليك السلطان أو أميرًا يضمها إلى حريمه معززة مكرمة .. ليس لها عمل سوى الرقص والغناء .. وإرضاء شهواته كلما أراد .. وفقط .. أما أن تكون النهاية هكذا .. مع من ؟ سنقر .. وعلى ظهر حمار ؟! وفي تلك المنطقة الشعبية الفقيرة .!. ما أبشعها من نهاية.

* * *

أغلق سنقر باب الحمام جيدًا خلفه وأحكم إغلاقه .. وجلسوا جميعًا .. ورفعت نازك خمارها هي وزيتونة .. وأخذت نازك تتأمل المكان من حولها في تأفف .

أما سنقر فقد أخرج بعض الفاكهة ووضعها أمامها .. وقام شركس وأعد الشراب .. وألقى بانجو نفسه في المغطس .

مكتبتنا
WWW.MAKTBTNABBI.COM

جلس سنقر بجوار نازك .. وشركس بجوار زيتونة .. وقد شعرا بالتوتر والخجل .. قشر سنقر موزة وقدمها لنازك التي رفضتها بكبرياء .. فشعر بالحرج .. وسادت لحظة صمت طويلة جمدت الموقف .. قطعها سنقر قائلًا لنازك:

- وانتي مش ح تقلعي بأه ؟!

انزعجت نازك من السؤال وحدجته بنظرة قاسية :

- أقلع .! ليه ؟!

- عشان تستحمي .. حد يلاقي حمام وما يستحماش .

- أنا أستحمى هنا ؟ مكان الحمار .

- ده بانجو زي الفُل .. ما تخافيش .

كان شركس يقلد سنقر في كل ما يفعل .. ولم تكن زيتونة ممتنعة مثل نازك .. بل كانت سعيدة .. ضاحكة .. فهتف شركس بسنقر :

- سنقر .. زيتونة عاوزة تقلع .

- تقلع .!. ليه ؟!

- عشان تستحمى .

- المية مش ناقصة عكاره .. قول لها تهمد شوية .. وانجروا انتوا الاتنين من هنا .!. وخد الحمار معاك .. سيبونا لوحدنا .

مكتبتنا
WWW.MAKTBTNA88.COM

قام شركس وأخذ بانجو .. وخرج هو وزيتونة من الحمام إلى حجرة داخلية فقام سنقر متمشيًا في الحجرة مفكرًا يبحث عن مدخل .. ثم التفت نحو نازك نافدًا الصبر :

- إيه بأه ؟!
- إيه هوه اللي إيه ؟!
- اللي هوه إيه يعني ؟ إحنا ح نقعد كده .
- أمال أقعد ازاى ؟!
- أقعدي كده .. قصدي اقعدي براحتك .
- ما انا قاعدة براحتي .
- انتي متضايقة اني اشتريتك يا نازك .
- أنا مش فاهمة .. واحد غلبان زيك على قد حاله .. معندوش قوت يومه يدفع ألف دينار في جارية .. إزاي ؟!
- أنا حُر .. دي فلوسي .. انتي دفعتي حاجة .
- أنا كمان ليا طلبات ومش ح تقدر على مصاريفي .. انت فاكر الجارية دي ما بتتكلفش غير الفلوس اللي بتندفع فيها .. ح تجيب لي منين العبايات الحرير المطرزة بالدهب .. والخلاخيل الفضة المطعمة بالأحجار الكريمة والعطور الغالية اللي انا باستخدمها .. ده غير أفخر أنواع الأكل والشرب .. أنا ما تعودتش على الفقر يا سنقر .. انت كده ظلمت نفسك وظلمتني .

مكتبتنا
WWW.MAKTBTNABBI.COM

- يعني إيه ؟!

- مفيش قدامك غير حل واحد .!. انك تبيعني ؟!

- أبيعك إيه .. هوه احنا لسه عملنا حاجة .. ده اللي بيشتري حصان بيركبه قبل ما يبيعه .. اللي بيشتري بقرة بيحلبها ويشرب لبنها قبل ما يبيعها .. انتي مستهينة بيا يا نازك ؟!

- وإيه اللي ممكن يكسبه واحد غلبان زيك كل صنعته انه صاحب حمام تعبان زي ده !!

- لا يا نازك .. أنا مضطر اقولك على السر اللي مفيش مخلوق يعرفه غير بانجو .. أنا مش صاحب حمام وبس .. أنا صاحب السلطان ؟

اتسعت عينا نازك من الدهشة .. ثم استغرقت في الضحك .

- أيوه .. أنا صاحب السلطان وحبيبه .. بتضحكي .. مش مصدقاني .. طيب إيه رأيك بأة إن الفلوس اللي أنا دفعتها فيكي دي .. السلطان بنفسه اللي مديهاني .. أيوه .. السلطان بيتفاءل بوشي .. ويوم ما تولى السلطنة أنا أول واحد عرفت .

- اسمع يا سنقر .. انت غلبان آه .. مش لاقي تاكل ماشي .. إنما تطلع مجنون كمان .. أهو ده اللي كان ناقص .

وأخذت نازك تضحك وتضحك وسنقر في قمة الغيظ .. وفجأة إذا بطرق شديد على الباب .. وأصوات المماليك الفرسان تزأر خارج الحمام :

- افتح فالاد سنقر .. افتح فالاد .

مكتبتنا
WWW.MAKTBTNABIS.COM

- مين ؟!

- إحنا حرس سلطان معظم فالاد سنقر .

اندهشت نازك .. وبلع سنقر ريقه في خوف .. وفتح الباب فوضعت نازك الخمار على وجهها .. فدخل أحد الفرسان وخلفه الحرس .

- تعالى فالاد سنقر .. مولاي سلطان معظم يريد يحلق .

- يحلق بس .. ده حبيبي .. اتفضلـــوا انتوا .. ح اجيب العدة بس واجي وراكوا .

- لأ فالاد .. إحنا يستنى إنت بـــره عشان ناخدك معانا قصر سلطان معظم .

وخرج الفرسان في انتظار سنقر الذي شعر بأن كرامته ردت إليه .. ونظر إلى نازك التي رفعت الخمار وهي تنظر نحوه غير مصدقة .. لسنقر الذي أخذ يجهز عدته في حقيبة .. ثم نظر نحوها برجولة وكبر وخيلاء وقال لها :

- ما تفتحيش لحد لما يكون مين ؟ أنا واصل مشوار لحد السلطان وجاي .

وصفع الباب خلفه في عنف ونازك لا تصدق ما ترى .

* * *

مكتبتنا
WWW.MAKTBTNA.COM

الفصل السابع

دخل سنقر قصر السلطان في حراسة مشددة .. وحوله المماليك والفرسان راكبين خيولهم .. لم يكن سنقر قد دخل قصر سلطان في حياته قبل ذلك .. كانت الفخامة والأبهة في وجود الحراسة المشددة ، والوجوه المشدودة المتأهبة ، والسيوف اللامعة الحادة ، والحراب المسنونة كلها تمر أمام عيني سنقر وهو يدلف خلف الحرس من قاعة إلى قاعة ومن باب إلى باب .. حتى إنه لم يعد يذكر كيف أتى من كثرة الدهاليز التي قطعها داخل القصر ومن كثرة الوجوه والأيدي التي تسلمته لتقدمه لآخرين وبرغم القلق والرعب .. كان سنقر يشعر باطمئنان غريب .. فهو يعلم أن السلطان الأمجد بيدرا هو الذي أرسل في طلبه لأنه يتفاءل به فلحظة توليه السلطنة كان هو الوحيد من العامة الذي كان شاهدًا عليها ، والمماليك يؤمنون بالتفاؤل والتشاؤم ، ما دام هو وجه سعد فليطمأن .. هكذا كان سنقر يقول لنفسه .. حينما أجلسوه وحده في قاعة فسيحة مبهرة .. تتوسطها فسقية رائعة من

مكتبتنا
WWW.MAKTBTNABRIS.COM

الرخام الملون والمرمر النادر .. ولم يكن الماء الذي في الفسقية ماءً عاديًا .. كان لونه جميلاً يميل إلى الأخضر الفاتح .. قام سنقر متسللًا وهو ينظر حوله .. واقترب من الفسقية كانت رائحة الماء أقرب إلى رائحة الفُل والياسمين .. مد أصبعه وتذوق الماء كان طعمه لذيذًا جدًّا أقرب إلى السكر بالليمون بماء الورد فمد كفيه وضمهما ليغترف من الفسقية وملأها بالماء .. ومد بوزه لكي يرتشف الشراب المعجزة ، فإذا بصوت حاد يخرق أذنه .. صوت أجش .. مخيف .. يصرخ فيه :

- إنت إيش يسوي هنا فالاد حيوان ؟!

كان الصوت قويًّا بحيث أن سنقر انكفأ داخل الفسقية على رأسه .. ثم قام مفزوعًا وهو ينفض ثيابه التي امتلأت بالماء المعطر .. فوجد أمامه رجلًا فارع الطول أنيق الملبس يرتدي من الجواهر واليواقيت على صدره ويديه أحجارًا كريمة تلمع وتتلألأ ، وترسل أشعتها حول الرجل .. فبدا ملكًا أسطـــوريًّا .. فانحنى سنقر وباس الأرض عند قدميه في ذُل وخضوع .. وقال له :

- لقد أنعم علي ربي يا مولاي بأن أتشرف ويمن علي جلالة السلطان بأن أحلق له شعر رأسه .

- أنت حلاق فالاد .

- لا يا مولاي .

- انت موش حلاق .. أمال جاي هنا في قصر سلطان من شان إيه ؟

مكتبتنا
WWW.MAKTBTNA88.COM

- أنا قصدي يا مولاي .. بعد ما احلق لفخامة السلطان لا يمكن احلق لحد بعد كده .. ولا انجس إيدي وامسك راس واحد كلب من عامة الشعب .

فضحك الرجل ضحكة مجلجلة أخافت سنقر أكثر .

- انت فالاد دمه خفيف .. هاها .

هنا تشجع سنقر .. وقد شعر أن الضحكة ودية نوعًا ما رغم هديرها المرعب وقال له :

- إنما ما قولتليش يا مولاي .. مين فخامتك .. وزير الدولة .

فتضايق الرجل وكأن سنقر أهانه إهانة بالغة :

- دي هيئة وزير يا حيوان ؟!

- اعذرني وسامحني يا مولاي .. أنا جاهل .. اللي ما يعرفك يجهلك .. إنت أمير كبير .

- أمير ؟!

- استنى يا مولاي .. ما تكملش .. انت قائد جيوش عظيم .

- قائد جيوش ؟!

- ما هو مش معقول تكون السلطان لأن السلطان أنا عارفه كويس .

وقف الرجل في كبر واستعلاء .. يستعرض أناقته وفخامته .. وقال بحركة استعراضية :

- أنا قبوجي باشا .

مكتبتنا
WWW.MAKTBTNABRIS.COM

- نعم .!

- قبوجي باشا يا حيوان .. رئيس بوابين .

- وكل الألاطة دي وبواب .! طيب اجري ادي للسلطان خبر ان أنا جيت ! اتحرك اعمل لك همة .

وثار القبوجي باشا وصرخ في سنقر أنا أقطع لسان إنت فالاد حيوان صعلوك .. وأمسك القبوجي بسنقر الذي ظل يصرخ وفجأة دخل إلى القاعة رجل مهيب صرخ فيهما :

- هذا قصر سلطان .. مين حيوان هذا ؟!

فوقف القبوجي باشا في احترام منحنيًا وبرك سنقر على الأرض مقبلا قدميه :

- أنا الحلاق .. الحلاق يا مولاي .. السلطان باعتلي عشان أحلق له .

فنظر الرجل إلى القبوجي باشا نظرة مرعبة :

- وليش حلاق صعلوك ما يمر عليا قبوجي باشا حيوان واقف تلعب مع حلاق صعلوك .

فقال القبوجي خائفًا :

- ما هو أنا كان ح يديك يا مولاي خبر إنه وصل .

فقال سنقر :

- لا يا مولاي .. ده كان راسم التت عليا من ساعة ما دخلت وعمال يخبط في الأمرا وفي الوزرا ولا هامه حد .

مكتبتنا
WWW.MAKTBTNABRIS.COM

فنظر الرجل متوعدًا إلى القبوجي الذي كاد يسقط من فرط الرعب وسأله متوعدًا إياه :

- إنت إشتم أمرا ووزراء قبوجي باشا ؟!

فقال القبوجي :

- لا تصدق فالاد حلاق خارسيس أفندم .

فقال سنقر :

- وبتكدب .. ده إنت ح تتقلي في نار جهنم الحمرا .

فقال الرجل :

- وريني فالاد حلاق .. إيش معك من أدوات عشان يحلق لعظمة السلطان .

فأخذ سنقر يخرج عدته .. وبدأ يعرضها بكل احترام .

- أنضف موس عندي يا مولاي أهوه .. وعطور من كل نوع وفوط جديدة محدش لمسها .

فصرخ الرجل ما أن رأى سنقر يخرج له الفوط :

- إنت يجيب فوط قذرة من عندك عشان يمسح رأس سلطان .. فالاد حيوان إنت لازم إترمي في السجن .

فقال له سنقر :

- دي زي الفل يا مولاي .

مكتبتنا
WWW.MAKTBTNABRIS.COM

فقال الرجل :

- ولما إنت تجيب فوط لسلطان .. أنا هنا أعمل إيه ؟ انت مش يعرف إن أنا بشكيرجي باشا السلطان ؟!

قال سنقر :

- بشكيرجي .!

فقال الرجل بفخر :

- نعم بشكيرجي .!

فقال سنقر :

- يعني إنت هنا كل شغلتك تجيب بشاكير وتودي بشاكير .

فقال الرجل بفخر :

- نعم .

فقال سنقر :

- ربنا يعينك على اللي انت فيه .. ما هي بتقطع النفس في الغسيل .

فقال الرجل :

- لا .. أنا مش بغسل بشاكير .. أنا لا أتخطى حدودي فالاد .. اللي يغسل بشاكير سلطاني لازم يكون جندارجي دار .

فقال سنقر :

- جندارجي دار مرة واحدة .. ربنا يوعدنا .. طيب احنا إمتى ح نحلق لفخامة السلطان بس عشان سايب المحل فاضي يعني ؟!

مكتبتنا
WWW.MAKTBTNABBIS.COM

وإذا برجل يدخل فينحني البشكيرجي .. والقبوجي وسنقر خلفهما مرعوبًا وقد سجدوا عند قدميه فقال سنقر مرعوبًا :

- مين ده ؟ مين ده ؟ أوعوا يكون بتاع الكلب .. كلبجي دار !!

فقال البشكيرجي :

- كلب إيه يا فالاد حيوان .. أسجد .. لا ترفع رأسك وإلا أقطع راس .. قبِّل أقدام مولانا فالاد .

فقال سنقر :

- ده إيه الليلة السودة اللي وقعت فيها دي .

ونظر الرجل نحو الجميع باستعلاء وازدراء .. ثم قال :

- ده فالاد حلاق إيجي عشان يحلق لفخامة السلطان ؟!

فقال سنقر مفزوعًا :

- والنعمة الشريفة أنا .. أنا الحلاق .. هوه مفيش ثقة .. أنا اديتكوا كلمة خلاص لا يمكن أرجع فيها .. بس ارحمني منهم يا مولاي .. البواب وبتاع الفوط دول من ساعة ما جيت هنا مستلميني .

فصرخ فيهما الرجل :

- بره .. إطلع بره بشكيرجي حيوان وقبوجي خارسيس .. بره .

فهرول كل منهما خارجًا في رعب .

مكتبتنا
WWW.MAKTBTNABBIS.COM

وسنقر يلاحقهما بلعناته وقد تشجع لوجود الرجل :

- ياللا يا صيع يا عواطلية يا ولاد الكلب .

هنا زأر فيه الرجل :

- إنت إشتم بشكيرجي وقبوجي تركي فالاد حيوان ؟!

- إنت ح تقلب عليا ليه يا مولاي .. ده انا باجاملك عزِّنُّه فرح وبانقط فيه .

- تركي إشتم تركي ممكن .. إنما فالاد مصري فلاح إذا إشتم تركي إقطع لسانه وسمر أجساد وعلق على بوابات .

- أنا مقصدش يا مولانا .. أنا السلطان باعتلي بالاسم عشان أحلق له وأروقه .. ده انا حبيبه .. ده انا الباروكة بتاعته .. الخرزة الزرقا اللي بيتفاءل بيها .

- إنت إعرف فخامة سلطان .

- إلا أعرفه .. إنت بس خش قول له سنقر وصل .. وشوف ح يعمل إيه ؟

- لكن كيف مولاي السلطان ما يقول لي أنا إنه يعرف فالاد فلاح صعلوك حلاق ؟!

- لازم انت مش قريب منه قوي يا باشا .

- أنا .. أنا أقرب واحد لفخامة السلطان .

مكتبتنا
WWW.MAKTBTNABIS.COM

- بس .. تبأه مولاي المعظم أخوه .

- لا .

- ابن أخته .

- لأ .. أنا اللالا .

- مين ؟!

- اللالا حيوان .. أنا مربي السلطان .

- الدادة يعني ؟

وصرخ الرجل غاضبًا :

- لا حيوان .. أنا اللالا باشا .

- طيب يا عم ما تغلش في روحك قوي كده .. يعني انت بتعمل إيه ؟ كنت بتاخده زمان تفسحه في الجنينة .. تأكله بسكوتاية .. تغير له كافولة يديك على قفاك .

- قفا مين كلب فلاح ؟! قفا اللالا باشا .. أنا لازم إشنق إنت .

- العفو يا باشا .. قفايا أنا .. قفايا أنا .. إحنا مش ح نحلق في يومنا ده ولا إيه ؟!

ولم ينقذ سنقر من يد اللالا سوى دخول برغل الطواشي .. وقال :

- تعالى فالاد سنقر حلاق .. فخامة السلطان لازم إحلق حالًا .

مكتبتنا
WWW.MAKTBTNA8891.COM

وما أن رآه سنقر حتى تنفس الصعداء :

- برغل أغا .!. إنت فين من الصبح .. الناس دي أنا مش عارف اتفاهم معاهم ..

وأخذه برغل ومضى به عبر دهاليز القصر .. حتى وصلا إلى باب قاعة الملك .. فقال له برغل :

- اسمع فالاد سنقر .. أشلون هانم خاتون أم عظمة سلطان مش يثق بحد في الدنيا غير برغل أغا .. عشان كده أنا اللي قلت لعظمة أم سلطان فالاد سنقر حلاق تمام .. إنت فاهم ؟!

- وأنا ح اشرفك يا برغل .. ده حبيبي إنت ح تشوف السلطان أول ما يشوفني ح يعمل إيه ؟ وحياة النبي ما تقول له إن سنقر بالباب .. خليها مفاجأة .

* * *

دخل سنقر قاعة الملك الفسيحة ورأى عرش السلطان من بعيد بكامل الأبهة والفخامة الرهيبة .. ومن حوله الحراس الأشداء .. وامرأة تبدو عليها أمارات الحزم والقوة والعز .. ثم نظر إلى العرش فإذا بالجالس طفل صغير .. لم يصدق سنقر عينيه .. فالسلطان الذي رآه هو الأمير بيدرا بطوله وعرضه وبنيانه المتين القوي أشبه بعملاق من عمالقة الأساطير فما الذي حدث له .!

مكتبتنا
WWW.MAKTBTNABBI.COM

كان سنقر قد اقترب فوجد السلطان الناصر محمد بن قلاوون طفلًا صغيرًا فاندهش وبلع ريقه وأخذ يخبط رأسه بيديه وقال لنفسه :

- الله يخرب بيتك يا بانجو .. عميتني النهاردة .. ومش جاية تشتغل إلا هنا .. ح تودیني في داهية .. السلطان ماله اتسخط كده ليه ؟!

وارتمى سنقـر على الأرض وباس الأرض تحت قدمي السلطان ثم نظر نحوه بحب :

- ألف سلامة عليك يا مولاي السلطان المعظم .. بأه الحكم يعمل في فخامتك كده ؟! تتمقت وتنزل النزلة دي .. إنشالله عدوينك .. إنشالله اللي يكرهوك إلهي يارب فره تاخد بيت قلاوون وتخلص عليهم واحد واحد .

فانقض عليه الحراس وأمسكوا به في غلظة :

- إنت يشتم مين فالاد في حضرة سلطان معظم ؟!

- أنا باشتم عدوينه اللي يكرهوه .

ثم همس لبرغل :

- مين ده يا برغل ؟!

فأجابه برغل أغا بخشوع :

- حد ما يعرفش مين سلطان معظم فالاد حيوان .

- ما انتوا كل يوم بتغيروا واحد .

مكتبتنا
WWW.MAKTBTNABIS.COM

- هذا الملك الناصر محمد بن قلاوون .

- ابن قلاوون .. يعني قلاوون لسه شغال بأه .

- أخو الأشرف خليل اللي قتله الملعون بيدرا .

- ألف لعنة تنزل عليه .. الله يرحمك يا سلطان قلاوون .. الله يرحمه .. كان حبيبي .

وأخذته الحماسة وأخذ يهتف :

- يعيش الناصر محمد بن قلاوون .

وضحك البلاط كله من منظر سنقر .. وضحك السلطان .

ووقف سنقر خلف السلطان ليحلق له .. ويبخ له الماء على شعره .. ثم يسرحه بالمشط .. وأمه خاتون أشلون واقفة إلى جواره .. تحذر سنقر كل دقيقة :

- على مهلك بشويش على السلطان فالاد حلاق .

فيهم الحرس ويندفعون نحو سنقر الذي يكاد يسقط من فرط الرعب .. وأثناء حلاقة سنقر للسلطان كان يضاحكه بأدب .. حتى ارتبط به السلطان إلى أن دخل الأمير كتبغا وقبل الأرض بين قدمي السلطان .. ثم قال له :

- يا مولانا السلطان المعظم .. معي أمير مخلص يطلب العفو والسماح من عدالة السلطان ورحمته .. فهل تأذن له بالدخول ؟

مكتبتنا
WWW.MAKTBTNABIS.COM

نظر السلطان إلى سنقر وكأنه يأخذ رأيه فأشار له سنقر بالإيجاب .

دخل الأمير حسام الدين لاجين .. وقبَّل الأرض أمام السلطان وقال له بخنوع وذُل :

- أطلب العفو والسماح يا مولاي السلطان المعظم .

ما أن رآه سنقر حتى بُهت .. فهو الذي غمد السيف في كتف الأشرف خليل وضربه الضربة القاتلة .. لم يشهد ذلك سوى سنقر .. وارتبك سنقر وكاد الموس يسقط من يده .

فسدد له لاجين نظرة أوقعت قلبه في قدميه .. ولكنه تشجع وهمس في أذن السلطان :

- هو ده يا مولاي السلطان .. هوه اللي قتل السلطان الأشرف .. أنا شايفه بعيني .. أوعى تديله العفو .

هنا صرخ فيه كتبغا :

- ماذا تقول فالاد حلاق حيوان لجلالة السلطان المعظم ؟!

فقال له سنقر مذعورًا :

- ما بقولش حاجة .. أنا باقول أسيب له القطف ولا أقصرهاله .

هنا صرخ السلطان في لاجين :

- أنت قتلت أخويا السلطان الأشرف خليل ؟!

مكتبتنا
WWW.MAKTBTNABRIS.COM

فقال لاجين :

- لا يا مولاي .. إنما قتله بيدرا وأنا حاولت أن أنقذه ولم أستطع .. كاد بيدرا يقتلني أنا أيضًا يا مولاي .

قال سنقر في غيظ :

- يا ساتر على الكذب .. هو بيدرا عرف يضربه .. ده السيف جلى منه .. وانت اللي روحت هابده واحدة خلصت عليه .

هنا ثارت ثائرة كتبغا وصرخ في سنقر:

- إنت إتكلم قول إيه حلاق حيوان .. إخرس فالاد أحسن أقطع لسانك ده .!

ثم توجه كتبغا نحو السلطان ومعه صك العفو .

- إختم هنا يا مولاي على صك العفو عن أمير لاجين .

وتقدم حامل الختم وأعطاه للسلطان الذي ختم على صك العفو فابتسم الأمير لاجين ابتسامة الانتصار ونظر إلى الأمير كتبغا نظرة الممتن الشاكر لما فعل .. ثم قام وقبَّل يد السلطان ثم قبَّل يد الأمير كتبغا ومضى سعيدًا من قاعة السلطنة وفي يده الصك .

* * *

مكتبتنا
WWW.MAKTBTNABBIS.COM

الفصل الثامن

دخل سنقر حمامه .. فلم يعرفه .. كان الحمام قد تبدل تمامًا .. صار نظيفًا جدًّا لامعًا رائحته عطرة .. وقد أزيلت منه الأتربة وخيوط العنكبوت التي عششت على الجدران .. كل شيء كان موضوعًا في مكانه .. الفوط مغسولة .. ومطوية ومرتبة .. والأدوات موضوعة في أماكنها بعناية ورقة .. وكأن عفريتًا خرج من قُمقم وفعل هذا .. ومضى سنقر نحو المغطس فوجد أروع منظر رآه في حياته .. كانت نازك في المغطس ومعها بانجو وهي تغسله بالماء والصابون .. لم يصدق سنقر عينيه .. وما أن رأته نازك حتى خرجت من المغطس .. ونهق بانجو معترضًا على مجيء سنقر فجأة كالعزول الذي قطع عليه حمامه الدافئ الممتع .. اقترب منها سنقر متوددًا .. أما هي فقد ابتعدت عنه وغطت كتفيها بفوطة فقال لها مداعبًا .. سعيدًا في طفولة وبراءة :

- تبقي حبيتي المكان ! وما دام حبيتي المكان .. تبقي حبيتي صاحب المكان .

مكتبتنا
WWW.MAKTBTNABIS.COM

ابتعدت عنه نازك قليلًا .. ثم قالت له :

- اسمع يا سنقر .. أنا عملت اللي عليا كجارية .. نضفت لك الحمام والبيت ومسحت وكنست وحضرت لك العشا .

- هو ده واجبك كجارية ؟! لو كان على شغل البيت كنت جبت جارية فليبنية ولا حبشية .. الجواري ليهم شغل تاني يا نازك .. أظن انتي فاهماني كويس .

- أيوه فاهمه يا سنقر .. فاهمه .. إنما أنا عاوزه أسألك سؤال .

- دي لسه ح تسأل .. إيه الجارية اللي غاوية أسئلة دي .. الجارية ما تقولش غير حاضر .. طيب .

- حاضر يا سنقر .. إنما انت ترضى إنك تاخد مني اللي انت عاوزه ده وأنا مش حاسة بيه .

- آه أرضى .. المهم انتي ترضي .

- الجارية مالهاش إنها ترضى أو ترفض .. أنا كنت فاكرة إنك بتحبني .

وانكسرت نازك في ألم وأسى .. ثم جلست على الأريكة .. وقالت له بحزن وقد نامت على الأريكة وفتحت ذراعيها :

- تقدر تاخد مني اللي انت عاوزه يا سيدي .

مكتبتنا
WWW.MAKTBTNABIS.COM

فشعر سنقر بأنه أهانها .. وتردد :

- ما هي مش طريقة دي برضه يا نازك .. انتي بتكلميني كأننا رايحين نعزي .. الحاجات دي عاوزه مود والكآبة اللي انتي فيها دي ماتنفعش .. تعمل عكوسات علطول .
- تحب إني أغنيلك .. أرقص لك .. أؤمر يا سيدي .
- بلاش يا سيدي دي بأه أحسن حاسس كده انك بتذليني بيها .. أنا مش سيدك ولا سيد حد .. قوليلي يا سنقر .. بحب اسمعها منك .. بتطلع حلوه من بُقك .
- عشان أقولك يا سنقر .. لازم أكون بحبك..وانت عاوزني جارية .
- ليه وهما الجواري ما بيحبوش .. دي مهنتكوا .
- الحب لما يبأه مهنة عمره ما يبأى حب يا سنقر .. على فكرة لو فكرت شوية في اللي بقولك عليه لازم تكون مبسوط .. اللي انت عاوزه دلوقت متعة سريعة ح تخلص في لحظات .
- إيش عرفك ؟!
- الجنس عمره قصير .. أنا عارفه .
- طبعًا ما انتي خبره بأة .
- إنما اللي انا باعرضه عليك متعة عمرها ما تخلص .. تفضل لآخر العمر .. أنا عمري ما اخترت حاجة في حياتي .. إنما انا عاوزه اختارك انت وتكون أول حاجة في حياتي أعملها بإرادتي .. وأنا بارتب لك البيت حسيت بسعادة جديدة عليا .. سعادة من نوع

مكتبتنا
WWW.MAKTBTNABRIS.COM

جديد .. سعادة ست مش سعادة جارية .. ولما اتأخرت عند السلطان قلقت عليك .. أول مرة أقلق على حد .. حسيت كأنك ابني .. أخويا .

- ابني إيه واخويا إيه ؟ الكلام اللي مش جايب همه ده بأه .

- صدقني يا سنقر .. أنا عشت في قصور وكنت جارية من جواري الأمرا والسلاطين .. واتنقلت من إيد ده لإيد ده .. من إيد أمير لإيد فارس لإيد مملوك .

- وجات عليا أنا وقفلت ؟!

- عمري ما حسيت بفرق وانا في حضن الراجل ده ولا في حضن الراجل ده .

- دي ح تعصبني .

- الفرق الوحيد أنا حاساه دلوقت .. وأنا معاك .. إذا كنت عاوز الفرق ده يفضل موجود .. استنى عليا .. اصبر .. خللي الأيام والعشرة اللي بيننا هي اللي تخلق الحاجة الجميلة اللي انا بحلم بيها معاك .

قام سنقر متضايقًا .. وقال لها بضيق :

- خلاص اللي تشوفيه يا نازك .

ومضى تاركًا لها الحجرة وهي تودعه بابتسامة حانية رقيقة .

* * *

مكتبتنا
WWW.MAKTBTNABBY.COM

في قصره المنيف .. احتفل الأمير حسام الدين لاجين بقرار العفو عنه الذي وقع عليه السلطان المعظم .. كانت ليلة أسطورية أشبه بليالي ألف ليلة .. فهذا الذي كان مختفيًا هاربًا مطاردًا قابعًا في مخبئه بين الفئران والوطاويط والقمامة .. حينما عاد إلى الحياة .. وصار في المشهد .. أراد أن يعوض نفسه الأيام والليالي السوداء جالسًا مثل أمراء الأساطير .. طويلًا أبيض اللون أشقر اللحية أزرق العينين مهاب الشكل .. فارسًا مقدامًا يبتسم ابتسامة فلسفية عميقة .. وكأنه يحلم .. أو كأن لا يصدق ما تراه عيناه .. وأمامه كانت الجواري والراقصات والمغنيات يرقصن ويغنين والكل في فرح وسرور عظيم .. وحوله أمراء المماليك وكان من بينهم الأمير منكوتمر .. وكان أميرًا قاسيًا له سطوة وبطش ويخافه الناس والمماليك .. مال الأمير منكوتمر على الأمير لاجين باسمًا وقال له :

- مبارك عفو السلطان أمير لاجين .

فضحك لاجين وقال له :

- إن حياتي غريبة أمير منكوتمر .. تضيق علي حتى تخنقني ثم تفك قبضتها فجأة .. وكأن قدري أن أظل موجودًا بها كأنها تدخر شيئًا كبيرًا لي .

- أطال الله عمرك أمير لاجين .

مكتبتنا
WWW.MAKTBTNABBIS.COM

- إلى متى أمير منكوتمر .. إن بيت قلاوون لا ينتهي .. ستظل السلطنة لآل قلاوون إلى أبد الآبدين .

- من قال هذا يا أمير .. وهل هذا السلطان الطفل سلطان حقيقي .. إن الأمير كتبغا هو الذي يحكم وما دام الأمير كتبغا يحكم فأنت تحكم .

- الحكم شيء والسلطنة شيء آخر يا منكوتمر .. السلطنة هي المجد .

هنا دخل النخاس بعد أن انتهي الرقص وخلفه الجواري .. وباس قدم الأمير وقام بحركة استعراضية كأنه ساحر يعرض ألعابه .

قال النخاس :

- احتفالًا بالعفو السلطاني عن سمو الأمير لاجين اسمح لي يا مولاي أن أقدم لكم أجمل الجواري الفاتنات .. واللاتي لم تقع عليهن عين ولم يبصرهن مخلوق .. قبل سموكم .

ضحك منكوتمر ساخرًا وقال للاجين :

- هذا النخاس أكذب أهل الأرض .. جواريه لم يتغيرن منذ عشرة أعوام وفي كل مرة يقدمهن على أنهن بضاعة جديدة .

وظل النخاس يعرض جواريه بطريقته المعتاده :

- قمر الزمان .. دليله .. شمس النهار .

مكتبتنا
WWW.MAKTBTNABRIS.COM

هنا همس منكوتمر للاجين :

- عنده جاريه واحده ليس في جمالها أحد يا أمير .. اسمها نازك .. رأيتها عنده .. وكنت أنوي أن أقدمها لك ولكن الظروف الأخيرة حالت دون ذلك .

قال لاجين باسمًا :

- نازك .!. وهل هي أجمل من كل هؤلاء !

قال منكوتمر :

- أنت تعرف ذوقي يا أمير .. (ثم استدرك قائلًا بخبث) .. وأنا أيضًا أعرف ذوقك .

وضحكا .. هنا قال لاجين للنخاس :

- تعالى يا نخاس .. لا أريد هؤلاء .. أنا أريد نازك .

فارتبك النخاس :

- نعم !

- ألم تسمع ما قلته ؟! نازك الجارية التي عندك .. لماذا لم تأت بها لي مع هؤلاء .. هل تخفي عني البضاعة الجيدة يا نخاس .

- العفو يا سمو الأمير .. نازك .. موجودة .. ولكنها مريضة .. سأحضرها بنفسي لقصر سموكم .

مكتبتنا
WWW.MAKTBTNABBIS.COM

قال منكوتمر :

- كان يطلب فيها ألف دينار .

قال النخاس :

- لا يا أمير .. بل ألفان .. والله ألفان .

قال منكوتمر :

- ألفان يا لص ! ألم تكن تدلل عليها وبح صوتك وأنت تقول ألف دينار ولم تجد أحدًا .

ضحك لاجين وقال له وهو يأمر مماليكه :

- أعطوه ألفي دينار .

فألقى أحد المماليك للنخاس بكيس به ألفان دينار تلقفهما في سعادة .. وجشع وقال وهو لا يستطيع أن يلتقط أنفاسه :

- غدًا .. غدًا تكون عند قدميك يا سمو الأمير .

وخرج وهو يدعو له :

- أطال الله عمر الأمير .. أطال الله عمر الأمير .

ولاجين ومنكوتمر قد أغرقا في الضحك على النخاس .

* * *

مكتبتنا
WWW.MAKTBTNABBIS.COM

في بيت سنقر .. كانت نازك تعد الطعام وسنقر جالس على الأرض أمام الطبلية سعيدًا قال لها :

- الله يا نزاكه .. ريحة أكلك حلوه قوي .. أنا ميت من الجوع .. هوه فين العيش ؟!

- شركس راح يجيبه من الصبح وما جاش .

- يادي الغباء .. وما لقيتيش غير شركس اللي يروح يجيبه .. ده انا وانا جاي شايف طوابيرأمم قدام الفرن .. حناكل الطبيخ حاف ؟!

وضعت نازك الطعام أمام سنقر الذي أخذ يأكله بيديه .

- وبانجو اتعشى ؟

- حطيتله التبن والبرسيم بس مش عارفة كده نفسه مسدودة مش عاوز ياكل .

- أنا عارف دماغه .. علشان بقالنا كام يوم ما روحناش المشوار بتاعنا .. تلاقيه مصدع ومقفل ومش طايق روحه .

- نفسي أعرف انت وبانجو بتروحوا فين ؟

- أصل فيه حماره بانجو بيحبها ومش طايلها .. أهو باوديه يشوفها ويمتع نظره بيها .. ويرتاح .

- طيب ما تشتريهاله يا سنقر .. هي غالية .

- المشكلة مش في تمنها .. المهم هي تعبره .. تسأل فيه .. تحن عليه .

مكتبتنا
WWW.MAKTBTNABIS.COM

ابتسمت نازك واحمر وجهها .. وقد فهمت ما يقصده سنقر الذي أخرج من سرواله خلخال نحاس وقدمه لها .. في حياء :

- ده خلخال نحاس مدقوق شفته النهاردة في السوق .. وقلت يعني يمكن يعجبك .

أخذت نازك الخلخال فرحة به :

- الله .. ده حلو قوي .

- معلش مش قد المقام .. كان نفسي أجيبهولك دهب .

- ده عندي أغلى وأثمن من دهب الدنيا كلها يا سنقر .

وبينما هما يتبادلان نظرة حانية ملتهبة بالمشاعر الصادقة .

دخل شركس وخلفه زيتونة .. وفي يده لفة قماش .. فصرخ فيه سنقر :

- كل ده بتجيب العيش .. هات .. عاوزين ناكل .

فقال شركس مندهشًا :

- عيش .!. عيش إيه يا سنقر .

- أمال إيه اللي في إيدك ؟

- دي بطاطا .

- بطاطا ؟! حناكل الطبيخ بالبطاطا يا طور .

مكتبتنا
WWW.MAKTBTNABIS.COM

- ومين قالك إنك ح تاكل الطبيخ بالبطاطا .. البطاطا دي عشان زيتونة .. بتتوحم .. أقعدي يا زيتونة .. ارتاحي .

فنظر سنقر نحو نازك باسمًا وقال لها :

- وانتي نفسك مش ح تروح للبطاطا بأه ؟!

فضحكت نازك وقد فهمت مغزى الدعابة .

وإذا بطرق على الباب وصوت الخربوطلي النخاس .

- افتح يا سنقر .. افتح .. أنا الخربوطلي .

فقال شركس متضايقًا :

- أعوذ بالله .. أبويا ؟ خشي يا زيتونة جوه مش ناقصين نبره وعينه الوحشة .

وضعت نازك الخمار على وجهها .. وفتح سنقر الباب ليدخل الخربوطلي مبتهجًا سعيدًا .

- السلام عليكم يا سنقر يابني .

- وعليكم السلام يا حاج خربوطلي .

ثم نظر فوجد نازك مرتدية الخمار .

- إزيك يا نازك .. بأه برضه لابسة الخمار قدامي .. ده انا الخربوطلي يابت .. سترك وغطاكي .

مكتبتنا
WWW.MAKTBTNABIS.COM

فقال له سنقر في ضيق :

- نعم .!. عاوز إيه يا حاج خربوطلي .. إنجز .

- شوف بأه يا سنقر .. أنا عارف إن نازك تاعباك ومورياك الويل وهي بصراحة معذورة .. مش متعودة على عيشة الفقر اللي هي عايشاها دي .. وأنا عارف إنك ندمان عشان دفعت فيها الألف دينار اللي أنا لحد دلوقت ح اموت وأعرف إنت جيبتهم منين ؟ إنما أنا جاي النهاردة يا سيدي عشان أحلك من الارتباط ومن العقد .. واديلك فلوسك وأخد نازك .

بس اسمع .. هي بقالها عندك مدة .. مش ح أديلك الألف دينار كلهم .. هي مش كانت شغالة .!. أنا ح أديلك خمسميت دينار يا عم وأخدها وأريحك منها .

نظر له سنقر ساخرًا وقال له :

- وجاي على نفسك كده ليه يا حاج ؟ خمسميت دينار حتة واحدة .

- ستمية .!. ياللا .. انت أصلك ابن حلال يا سنقر .

- وأنا مش موافق يا حاج .

- خلاص يا سنقر .. أنا ح اديلك سبعمية دينار ومفيش زيادة بعد كده .

- والتلتميت دينار دول راحوا عليا خلاص .. ويرضيك انت تخسرني تلتميت دينار حتة واحدة .

هنا ثارت ثائرة الخربوطلي .. وغضب .

مكتبتنا
WWW.MAKTBTNABIS.COM

- أما إنك واد واطي صحيح .. أنا الحق عليا اللي بافكر في مصلحتك .. هوه فيه حد يدفع لك فيها 700 دينار النهاردة .. البلد واقعة والسوق واقف ولا فيه بيع ولا شرا .. اسمع .. سيبها وأنا اجيبلك بدالها أربع جواري يحلوا من ع المشنقة .

- أنا آسف يا حاج .. ولا ربعميت جارية .

- خلاص خد الألف دينار بتوعك وغور .. ده انت طلعت نخاس ابن نخاس تعالي يا نازك .

- استنى يا حاج .

- القرار ده مش قراري أنا .

- أمال قرار مين ؟ هوه انت اتصرفت فيها ولا بعتها لحد .

- القرار ده قرار نازك .

- نعم يا خويا .. قرار نازك .. هما الجواري ليهم كلمة .. دي جارية .

هنا أمسك سنقر بنازك .. ورفع خمارها .. واضعًا يده على كتفها بحنان ورقة ثم قال لها وصوته يتقطع :

- نازك .. انتي صاحبة القرار .. عم عبد الكريم النخاس عاوزك ومادام مصمم كده يبأى عنده بيعة حلوة ليكي .. أكيد فيه أمير ولا وزير ولا فارس عاوزك .. لو تحبي تروحي معاه وتعيشي في القصر وفي العز أنا مش ح أقف في طريقك .

أمسكت نازك بيد سنقر وقبلتها .

مكتبتنا
WWW.MAKTBTNABRIS.COM

وجلست على الأرض .

- إنت عندي يا سنقر أحسن من السلطان نفسه .. إذا كان القرار قراري زي ما بتقول أنا لا يمكن اسيبك أبدًا لغاية ما اموت .

هنا التفت سنقر إلى الخربوطلي وهتف به في ثقة :

- ياللا يا راجل يا قرني من هنا .

فوجئ النخاس بما يحدث أمامه والذي يخرق كل قوانين النخاسة وما كان يجري في تلك الأيام وقال لسنقر مهددًا :

- اسمع كلامي يا سنقر .. ولا انت ولا هي قد اللي بتقولوه .. خد فلوسك وسيبها أحسن ما ح تسيبها غصب عنك وتقول يا ريت اللي جرى ما كان ومادام وصلنا لكده بأه .. أنا ح اجيبهالكوا على بلاطة .. الأمير حسام الدين لاجين ذات نفسه هوه اللي عاوزها .

انتفض سنقر مذعورًا :

- الأمير لاجين ؟!

قال الخربوطلي وقد شعر أنه امتلك الموقف تمامًا :

- ومين اللي شار عليه بيها .. رئيس البوليس الأمير منكوتمر .

- منكوتمر ؟!

- وانتوا عارفين بأه منكوتمر .. غاوي يربي أسود ونمور عنده في القصر وطبعًا الأسود والنمور عاوزه تاكل .. وأي حد يعارض الأمير .. أهه الوحوش أولى بلحمه وعضامه .

مكتبتنا
WWW.MAKTBTNABIS.COM

جلس سنقر منتفضًا وبجواره نازك ..

- هه .. قلت إيه ؟ تاخد الخمسمية يابن الحلال وتسيب الجارية للأمير ويا دار ما دخلك شر .. قدامك ساعة زمن وانا مستني في الوكالة عشان تجيبهالي .

وخرج الخربوطلي واثقًا من نفسه متأكدًا من النتيجة بينما ترك سنقر ونازك يضربان أخماسًا في أسداس .. هذه هي الدنيا .. لا تصبح دنيا إلا إذا كان بها ما ينغص .

في اللحظة التي اكتملت فيها سعادته وشعر بحب نازك له .. تمتد الأيدي الوحشية تحاول أن تنتزعها منه .. ولكن كيف يحدث هذا .. إنها ملكه .. القانون في صفه .. ولكن أي قانون هذا في دولة يحكمها المماليك .. المماليك فوق القانون .

استجمع سنقر نفسه وصرخ بصوت عال :

- مش ح استسلم يا نازك .. مش ح سيبك حتى لو ألقوا بي لوحوشهم وسباعهم ونمورهم تبأه إيه معنى الحياة وانا شايفك بعيني وهما واخدينك للأمير .. ملعون أبو الأمير على أبو الوزير على أبو السلطان .

هذه المرة .. قالها سنقر دون أن يتناول المخدر .. قالها بلا بانجو بكامل قواه العقلية أما نازك .. فقد ارتمت في أحضانه مما صعب الموقف أكثر وأكثر :

- وانا كمان مش ح اسيبك يا سنقر .

مكتبتنا
WWW.MAKTBTNA88.COM

وخرج شركس حاملًا عصا متسللًا ينظر حوله باحثًا .. ثم قال :

- هوه مشي ؟!

- مين اللي مشي ؟!

- أبويا .

- ملعون أبوك يا أخي .

- ألف مرة .. ده انا كنت خارج عشان أضربه .. فلت مني النخاس ابن اللذينه .. هوه كان جاي يعمل إيه الراجل ده ؟

- كان جاي ياخد نازك .

هنا تغيرت ملامح شركس وقال :

- وزيتونة ؟!

- هوه انت مش هامك غير زيتونة !

- بص بأه يا سنقر إذا كنت انت ح تسكت على حقوقك .. أنا مش ح اسكت ودديني وأيماني لاشتكيه .. أوديه السجن .

- تشتكيه لمين يا فالح .

- للشيخ تقي الدين .. قاضي القضاة .

نظر سنقر إلى نازك وقد أعجبته الفكرة وقال لشركس :

- وله .. أول مرة في حياتك تقول كلمة عليها القيمة .

* * *

مكتبتنا
WWW.MAKTBTNABIS.COM

الفصل التاسع

كان الشيخ تقي الدين عبد الرحمن بن بنت الأعز قاضي قضاة الديار المصرية .. رجلًا عادلًا تقيًّا كاسمه .. له هيبة وكلمة مسموعة .. حتى على السلطان نفسه .. لم يكن يخشى في الحق لومة لائم .. وكان المماليك من صغيرهم إلى كبيرهم يعملون له ولكلمته ألف حساب .. وتلك هي المفارقة الغريبة في العصر المملوكي .. برغم فسادهم وبطشهم وظلمهم للعباد إلا أنهم كان عندهم رهبة شديدة وخوف من رجل الدين لاسيما لو كان رجل دين حقيقيًّا يعرف حدود الله .. ويقيمها .

وهذه التركيبة رغم تناقضها إلا أنها منطقية تمامًا بالنسبة لطبيعة حكم مصر دائمًا .. فالظالم يخشى ثورة المظلومين .. والمظلومون في مصر غالبًا لا يثورون مهما حدث .. إلا إذا اقترب الظالم من الدين .. هنا يفقد المصريون صوابهم .. ويصبح الموت أو بالأحرى الشهادة أحب إليهم من الحياة .. وإذا ثار الجياع والمظلومون فلا أحد يستطيع أن يتصدى لهم وخصوصًا إذا كان الأمر به صبغة دينية .. ولذا حافظ

مكتبتنا
WWW.MAKTBTNABIS.COM

المماليك دائمًا على ذلك الاحترام المبالغ فيه والتوقير والتقدير الكامل لشخص قاضي القضاة .

وكان الشيخ تقي الدين .. لا يرهبه شيء ولا يغريه شيء .. وكثيرًا ما أقدم على أن يترك منصبه ويتنحى في مواقف كان فيها مساندًا للحق .. ونزل المماليك والأمراء من القلعة إلى بيته واعتذروا وتأسفوا وعاد الحق لأصحابه .

دخل سنقر ومعه نازك مرتدية الخمار على الشيخ تقي الدين الذي استقبله ببشاشة وابتسم في وجهه ابتسامة طمأنته .. كان شيخًا جليلًا ذقنه بيضاء طويلة وشعره أبيض فبدا كأن وجهه محاطٌ بهالة من نور .

اقترب سنقر من مجلسه وقبل يديه .. فبادره الشيخ تقي الدين عبد الرحمن :

- إسمك إيه يابني ؟!

- إسمي سنقر يا سيدنا الشيخ .

- سنقر .. يعني ما لقيتش اسم غير ده .. يا أخي خير الأسماء ما حُمد وما عبد .. الأسماء الحلوة كتير .

فقال سنقر :

- ما هو مش انا اللي سميتني يا سيدنا الشيخ .. كنت صغير قوي لما سموني .. أنا طلعت في الدنيا دي لقيت نفسي سنقر .

مكتبتنا
WWW.MAKTBTNABBI.COM

فقال له الشيخ مداعبًا :

- وعاوز إيه يابو السناقير .

- أنا عاوز أكلم فضيلتك في موضوع خطير ومش عاوز حد يسمعه .

- قول يا سنقر يابني .. محدش غريب .. دول كلهم شيوخ وعلماء أفاضل أجلاء وأنا أقلهم علمًا .

فردد الشيوخ الجالسون :

- العفو يا مولانا .

والتفت الشيخ تقي الدين إلى سنقر مبتسمًا وقال له :

- اتكلم يا سنقر .

- أنا يا سيدنا الشيخ اشتريت الجارية دي وآدي صك البيع .

فاندهش الشيخ تقي الدين وقال ممازحًا :

- شاب من العامة وفي هذا الغلاء ويشتري جارية .. تبأى الأحوال مش وحشة بأه زي ما بيقولوا .. واشتريتها بكام ؟

- بألف دينار .

- كام ؟!

- ألف دينار .

مكتبتنا
WWW.MAKTBTNA8891.COM

فضحك الشيخ تقي الدين وقال :

- إنت بتشتغل إيه يا سنقر ؟

- أنا حلاق .

- ده انت لو حلقت رؤوس الشعب كله ما تجيبش المبلغ ده .

- المال ده عطية .. منحة يا سيدنا الشيخ .. مال حلال والله .

- طيب يا أمير سنقر .. واشتريت الجارية .. إيه بأه المشكلة ؟

- عاوزين ياخدوها مني غصب .

- هما مين ؟!

- الأميرحسام الدين لاجين والأمير منكوتمر .

- ليس من حقهما ذلك .

- ربنا يفتح عليك يا سيدنا الشيخ .. ويخليك لينا .. طيب اعمل إيه ؟ أنا مش قدهم .

نظر الشيخ تقي الدين إلى نازك الجالسة وقد غطت وجهها بالخمار :

- هي دي يا سنقر .

- هي يا سيدنا الشيخ .

قال الشيخ تقي الدين :

- رغم إني لا أرى منها شيئًا إلا أنني أعتقد أنها جميلة .. رائعة الحُسن .

مكتبتنا
WWW.MAKTBTNABBIS.COM

- وبعدين يا سيدنا .. خلينا في البلوة اللي انا فيها .
- إذًا أنت تحبها .
- قوي يا سيدنا .
- وهي .
- بتحبني يا سيدنا .
- الحل بسيط وفي يدك وإذا عملته .. ولا لاجين ولا السلطان نفسه يقدر يقرب لها .
- الحقني بيه يا سيدنا .
- اعتقها لوجه الله .
- نعم .!
- إديها حريتها .
- بقولك دافع فيها ألف دينار يا سيدنا .
- اصبر بالله .. اسمع بقية الكلام .. إديها حريتها واعتقها لوجه الله تكسب ثوابًا كبيرًا في الآخرة .. نأت بأه لثوابك في الدنيا .
- أيواااه .. ما هو أنا جاي عشان ثواب الدنيا ده .
- تتزوجها .. تعقد عليها فتصبح زوجتك حلالك ولا يستطيع مخلوق كائنًا من كان أن تسول له نفسه ويفكر في أن يأخذها منك .

مكتبتنا
WWW.MAKTBTNABIS.COM

وأعجبت الفكرة سنقر .. فنظر إلى نازك التي ابتسمت له من خلف الخمار فعلم أنها تريد ذلك .

فقال سنقر للشيخ :

- وأنا موافق يا مولانا .. بس دلوقت .. أنا مش خارج من عندك إلا وهي مراتي .

- فضحك الشيخ تقي الدين وقال :

- المسألة مش بالسهولة دي يا سنقر .. لازم شهود وإجراءات .

- ربنا يفتحها عليك ويعلى مراتبك يا سيدنا .. ما الشهود موجودين أهم .. شيوخ وعلماء أفاضل .

فضحك الجميع .. وقال الشيخ :

- على بركة الله .

ثم نادى (مبروك) أحد مساعديه وقال :

- إديني يا مبروك يابني صك من صكوك العتق .

فأحضر (مبروك) الصك وفرده أمام الشيخ تقي الدين الذي بدأ في تحريره .

- إسمك إيه يا بنتي ؟

- نازك يا سيدنا الشيخ .

مكتبتنا
WWW.MAKTBTNA8855.COM

- جنسك إيه يا نازك .
- شركسية .
- اللون .

فقال سنقر بسرعة :

- بيضا .. بيضا قوي يا مولانا .
- السن .

فقالت نازك :

- 21 سنة يا مولانا .
- اسم المالك .
- سنقر .. سنقر جوهر الورداني .
- الأوصاف .

فانبرى سنقر ليعدد أوصافها :

- عنيها عسلي يا مولانا .. وشفايفها زي حباية الفراولة وخدودها .

فضحك الشيخ وقال له :

- أنا مش بقولك غازلها يا واد يا سنقر .. الأوصاف يعني الوزن والطول .

فقال سنقر بخوف :

- هوه انتوا ح تكتبوا طول المالك برضه .. مش ناقصة فضايح في أوراق رسمية كمان .

مكتبتنا
WWW.MAKTBTNABBIS.COM

فضحك الجميع .. وقال الشيخ تقي الدين لسنقر :

- قول لها يا سنقر (إني عتقتك لوجه الله يانازك يا بنت عبد الله الشركسية) .

فنظر سنقر نحوها بحب فائض وكرر ما قاله الشيخ :

- إني عتقتك لوجه الله يانازك يا بنت عبد الله الشركسية .

- ومن الآن أنت حرة .. وليّة أمرك كيف تشاءين بلا قيد ولا شرط .. ياللا أبصم هنا يا سنقر .. وانتي كمان يا نازك .

فوضع كل منهما أصبعه في الحبارة .. وبصما على وثيقة العتق .

- ألف مبروك يابني .. ثوابك كبير عند الله لقد عتقتها .. والآن هي حرة .

- قال سنقر بلهفة :

- والجواز يا مولانا .. أنا في عرضك ادياها حريتها .. اديني انا كمان حريتي .. بالحلال فابتسم الشيخ :

- ياللا يا مبروك .. عاوزين صك بأه من بتوع الجواز .

- بسرعة يا مبروك .. ده انت جيبت صك العتق في ثانية كأنك كنت شايله في جيبك .. ياللا عشان لما تجيني الحمام ح أروقك .. الحقني بصك الجواز .

مكتبتنا
WWW.MAKTBTNABBIS.COM

وأحضر مبروك قسيمة الزواج .. وبدأ الشيخ تقي الدين في إتمام إجراءات الزواج .

قول يا سنقر :

- زوجيني نفسك على سنة الإمام الشافعي وعلى الصداق المُسمى بيننا

وكرر سنقر ما قاله الشيخ .. وعاد الشيخ ليوجه كلامه لنازك .

- وانتي يا نازك قوليله زوجتك نفسي على سنة الإمام الشافعي وعلى الصداق المُسمى بيننا .

وكررت نازك ما قاله الشيخ ثم التفت إليها وسألها :

- قوليلي يا نازك .. الصداق كان إيه ؟ ولا الولد ده ما جابلكيش حاجة ؟!

- جابلي يا مولانا .. جابلي كل حاجة واداني أغلى مهر .. إداني حريتي .

- بس لازم برضة يدفع مهر هما بنات الناس لعبة .!. فالحين بس تروحوا تضيعوا فلوسكوا على الجواري ولما تتجوزوا تستخسروا في زوجاتكم كل حاجة ؟! لا زواج بلا مهر .

فقالت نازك :

- لا يا مولانا جاب لي جوز الخلاخيل النحاس دول .

فقال الشيخ :

- وانتي راضية ؟

مكتبتنا
WWW.MAKTBTNABRIS.COM

قالت نازك :

- راضية قوي .

فابتسم الشيخ تقي الدين لسنقر وقال له :

- مبروك يا سنقر .

* * *

خرج سنقر من عند الشيخ تقي الدين وهو في قمة السعادة .. شعر أنه يملك الدنيا بما فيها .. تأبطت نازك ذراعه وكان شركس وزيتونة في انتظارهما وقد شعرا بالقلق لتأخرهما عند قاضي القضاة فبادره شركس قائلًا :

- إتأخرتوا ده كله ليه يا سنقر .. أنا قولت المشكلة اتعقدت وحبسوكوا .

- يحبسوا مين يا اهبل .. أنا خلاص محدش في مصر كلها ح يقدر يهوب ناحيتي .. إسمع ياد يا شركس .. إنت بتحب زيتونة ؟!

- قوي يا سنقر .

- واللى في بطنها ده منك .

- أكيد يعني ؟ أمال من مين ؟!

- روح اعتقها واتجوزها يا غبي .

- هوه انت عملت كده ؟

- أمال أنا خارج رافع راسي ليه يا طور ؟!

مكتبتنا
WWW.MAKTBTNABBIS.COM

فقال شركس مسرعًا .. وبلهفة :

- همه لسه فاتحين جوه يا سنقر ؟!

وجرى وهو يجر زيتونة حتى كاد يسقطها .. وهو يهتف متوسلًا :

- يا شيخ تقي الدين .. يا مولانا .. أنا عاوز اعتق جارية واتجوزها .. ده أنا اللي قايل لسنقر عليك .

* * *

عند الجيزة .. وعلى صفحة النيل السعيد .. جلست نازك وبجوارها سنقر وقد التهبت مشاعرهما .. ممسكًا بيدها في براءة وحب جارف .. وكانت الشمس في الأفق تميل نحو الغروب .. وكأنها اطمأنت عليهما قبل أن ترحل وقد اكتست صفحة النيل بلون وردي رائع عكس أشعته على وجه نازك فصارت أكثر جمالًا وجاذبية .. تلك هي المنطقة التي يذهب إليها العشاق في مصر يسمونها خلوة العاشق .. فالمصريون رغم البلاء والقهر والظلم الفادح الذي يثقل كاهلهم يستطيعون دائمًا أن يقتنصوا لأنفسهم مساحة خاصة .. وركنًا قصيًا يمارسون فيه عواطفهم ومشاعرهم كأنه تراث تعاهدوا على أن يحافظوا عليه .. ما أقوى الحب حقًا .. وكيف يستطيع أن يحيا في بلد لا تغادره رائحة الموت .

قالت نازك لسنقر .. وهي تمسح دموعها :

- تعرف يا سنقر .. أنا اتولدت النهارده بس .

مكتبتنا
WWW.MAKTBTNA.COM

- بس بأه .. مش ناقصة عياط .. ما احبش أنا اللي يعيطوا وهما فرحانين .

- اللي انت عملته معايا ده يا سنقر .. أنا عمري ما حانساه طول عمري .. وح افضل طول عمري جاريتك وخدامتك .

- ما خلاص بأه.. جارية إيه ؟ إنتي مش بقيتي مراتي ؟!

فنظرت نحوه نازك ببراءة .. وقالت له باسمة :

- أصلي مش مصدقة والله .. خايفة أكون بحلم .

- لأ .. صدقي وركزي معايا .. إحنا متجوزين رسمي وعند قاضي القضاة شخصيًا .. وأهم حاجة في الجواز إيه ؟ النكاح .. والزوجة التي لا تناكح زوجها تصبح ناشز .. ناشز .. عاوزه تبأه ناشز يانازك ؟

فضحكت نازك ضحكة طويلة :

- بس مش معنى يعني إنك بأيتي زوجة تقلبيني وتكروتيني .. أنا عاوزك برضه تستفيدي من خبراتك اللي قبل كده كجاريه .. يعني عاوزك تدلعيني دلع محدش اتدلعه قبلي .. يعنى بره البيت إنتي زوجة محترمة خمارك على وشك ومحدش يشوف طرف جلابيتك .. جوه البيت بأه واحنا مع بعض .. أنا عاوز صياعة وقلة أدب ماوردتش على حد .. ما هو مش معقول أتجوز واحده زي القمر كده وكانت جاريه .. وابص بره .

مكتبتنا
WWW.MAKTBTNABIS.COM

انفجرت نازك في الضحك وهو أيضًا ،

وفجأة اقترب منهما أحد الباعة الجائلين .

- حطي الخمار .. حطي الخمار .

دخل الرجل مقتحمًا عليهما خلوتهما فوضعت نازك الخمار على وجهها .

- حاجه ساقعة .. حاجة ساقعة .. تاكل بطاطا يا معلم .. الست مش عاوزه تاكل دره ولا حاجه .. دره مشوي أحلى من الحمام .

- نظر سنقر إلى الرجل في غيظ وقال له :

- إيه يا عم .. حمار داخل علينا .. مش فيه حرُمه قاعده .

- نفعني يا معلم بأي حاجة .. والله ما حطيت في بُقي الزاد من الصبح

فأخرج سنقر درهمًا وأعطاه له .

- طيب امسك .. تاخد الدرهم ده وما اشوفش خلقتك تاني .. تغور من هنا .

- ربنا يخليك يا معلم .

ومضى الرجل مبتعدًا .. فنظر سنقر بعينيه مستعرضًا المكان .. كان المكان خاليًا تمامًا .. إلا من عاشق وعاشقة جالسين من بعيد .. جدًّا .. فقال لنازك :

- ياللا بينا .. المنطقة اتزحمت قوي .. اتملت بشر .. فين دي زمان لما ماكانش فيها صريخ بن يومين .

مكتبتنا
WWW.MAKTBTNABBIS.COM

- هنا رفعت نازك حاجبيها متوعدة وصرخت فيه :

- هوه انت كنت بتيجي هنا زمان .. مع مين يا روح امك ؟!

- لوحدي يانازك .. لوحدي والله .. كنت بآجي أتفرج وامشي .. إنتي ح تبتدي الغيرة ولا إيه ؟ ح تخلينا نندم إن إحنا عتقناكي .

ومضى كل منهما وقد تأبطا ذراع بعضهما في حب دافق .

* * *

وصل سنقر ونازك إلى باب الحمام فوجدا شركس نائمًا على الدكة التي بجوار الباب وزيتونة جالسة بجواره .. ما أن رأتهما حتى أيقظت شركس الذي قام من نومه .. وقال لسنقر معاتبًا :

- ده كلام يا سنقر برضه .. لما انت مش جاي ع الحمام .. مش كنت تديني المفتاح .. تفضل لاطعنا كده انا ومراتي في الشارع .

- ومراتك .!. إنت عتقتها خلاص ؟!

- أمال إيه ؟ إنت فاكر انت بس اللي بتعتق .. ده أبويا النخاس لو عرف إني عملت كده ح يطب ساكت .

- وزيتونة مبسوطة .

- هي مش فارق معاها .. جارية شغال .. مراتي شغال .. هي أهم حاجة عندها الأكل .. ما جيبتش معاك حاجة ناكلها يا سنقر ؟!

ودخلوا إلى الحمام جميعًا وأغلقوا خلفهم الباب .

مكتبتنا
WWW.MAKTBTNABIS.COM

كان بانجو بانتظارهم .. ما أن رأى سنقر حتى استدار بجسده ورأسه وكأنه لا يريد أن يكلمه .

فخبط سنقر على رأسه في ضيق :

- يااه .. ده احنا نسيناك يا بانجو .. ده ما أكلش من الصبح .. أنا آسف يا بانجو .. أنا حمار .. أنا غلطان .

وجرى وأحضر التبن .. ولكن بانجو رفض أن يأكل وأشاح برأسه بعيدًا عن صحن التبن .. وسنقر يعتذر له .. ويقبله :

- والنبي ما تزعل مني يا بانجو .. أنا عارف إني مقصر معاك اليومين دول .. بس وحياتك بكرة من الصبح لاخدك المشوار بتاعنا .. وأروقك .. كُل بأه .. كل عشان خاطري .

بدأ بانجو يأكل .

فقال شركس :

- سيبهولي أنا يا سنقر .. أنا ح ادلعه وأكله واشبعه .. خش انت ونازك بأه .. خش .

- أوعى تاكل أكله يا شركس .

- أنا حاكل تبن يا راجل انت .. ده بانجو ده حبيبي .

فأخذ سنقر نازك ودخلا إلى حجرتهما .

مكتبتنا
WWW.MAKTBTNA8891.COM

أما شركس فجلس تحت بانجو يؤكله بيده ويأكل معه .

- كُل بأه يا بانجو .. هم يا حمار . إلا قول لي يا بانجو .. هما ليه بيقولوا هم يا جمل ومابيقولوش هم يا حمار ؟!

ثم أخذ يأكل من صحن التبن مما أغاظ بانجو .

- أنا باكل معاك عشان افتح نفسك .

وتعالى صوت نازك وسنقر من الحجرة وقد بدا اللقاء ملتهبًا فاندهش شركس لما يسمع .

فقال للحمار بانجو مستفسرًا :

- هو بيضربها ولّا إيه ؟ نازك ما تستاهلش منه كده .. وبعدين هوه مش عتقها .. طيب كان خلاها جارية بأه ما دام عاوز يضربها .. إيه مالك بتبص لي كده ليه يا بانجو .. هو انا بقول حاجة غلط ؟!

وإذا بصوت زيتونة تنادي من الداخل :

- شركس .

- عاوزه إيه انتي روخره .

- تعالى .

- وبعدين بأه .. انتوا حصل لكوا إيه بعد ما عتقناكوا ولا انتوا عاوزين تنضربوا كلكوا الليلادي !!!

* * *

مكتبتنا
WWW.MAKTBTNABRIS.COM

الفصل العاشر

في قصر الأمير لاجين .. كان جالسًا على مقعده الوثير .. وبجواره كان منكوتمر واقفًا .. حين دخل عليه الحراس وهم يحملون الخربوطلي النخاس ويوسعونه ضربًا وركلًا .. ثم ألقوا به تحت قدمي منكوتمر الذي استل سيفه ووضعه على رقبة الخربوطلي .. فأخذ يصرخ في هلع :

- الأمان يا سمو الأمير .. الأمان .. أرجوك ما تقتلنيش .

فقال له الأمير منكوتمر :

- أنت فالاد نخاس حقير .. لص .. يأخذ فلوس من الأمير لاجين وإسرقها .. أين الجارية يا نخاس الكلب .

- موجودة يا سمو الأمير .. أعدم ابني شركس موجودة .

- أنت نخاس كذاب .. ولازم ياخد جزاء كذب .. نازك إنت بعته فالاد حيوان .. إنت فاكر ان فيه شيء يحصل على أرض مصر منكوتمر مش يعرفه فالاد ؟

مكتبتنا
WWW.MAKTBTNABRIS.COM

- أنا كنت بايعها لواد حلاق معفن .. مش لاقي اللضا وروحت له خلاص وخلصت معاه وح يرجعها ورجله فوق رقبته .!

- يعني إنت رجعت نازك فالاد .

- رجعتها يا مولاي .. رجعتها .. ده حتى قعد يساومني أما عرف إني عاوزها .. وطلب في العالي قوي .. مارضيش يرجعها بأقل من 3000 دينار .. واديتهمله .. صدقني يا مولاي .. صدقني .

كان منكوتمر قد أعطى له ظهره وهو ينظر من التراس إلى الحديقة حيث السباع والنمور تروح وتجيء .. ثم التفت إلى الخربوطلي وسدد نحوه نظره جامدة قاسية ألجمته وشلت لسانه .. فأخذ يبكي ويهذي وقد اختلطت الحروف فلم يعد كلامه مفهومًا وأخذ جسده يرتعش .. فقال له منكوتمر :

- إنت يكذب مرة تاني فالاد نخاس ؟!

فأقسم الخربوطلي قائلًا :

- والله العظيم تلاتة دي الحقيقة يا مولاي .. دي الحقيقة .. نازك اعتبرها تحت رجليك .. إديني ساعة زمن أروح اجيبها وآجي .

- وأنا أصدقك يا نخاس .

فقال النخاس باكيًا :

- ربنا يخليك يا مولاي .. أنا عبدك ومحسوبك .

مكتبتنا
WWW.MAKTBTNABBI.COM

فقال له منكوتمر بهدوء :

- الآن تقدر تنصرف .. اخرج .

فقام النخاس مهرولًا وقد تنفس الصعداء وجرى نحو الباب .. وحاول أن يفتحه فوجده مغلقًا .. جرى إلى الباب الآخر فوجده مغلقًا أيضًا .. وقف حائرًا لا يدري ماذا يفعل .. وبدا كفأر وقع في مصيدة ووقف منكوتمر يصرخ فيه :

- إنت ليه مش أخرج فالاد حيوان .. ليه مش نفذ الأمر .

- الأبواب كلها مقفولة يا مولاي .

فأشار منكوتمر إلى باب التراس :

- باب هذا مفتوح .. أخرج من هنا فالاد .

نظر النخاس إلى السباع الضارية والوحوش التي تروح وتجيء خلف التراس وصرخ في هلع وارتمى عند قدمي منكوتمر :

- أبوس رجلك يا مولاي .. أبوس رجلك .

فأمسك به منكوتمر .. ثم فتح الباب ودفعه خارجًا بينما وثبت السباع والنمور مسرعة راكضة في وحشية نحو النخاس الذي ظل صراخه يعلو ويعلو حتى انقطع تمامًا وساد القاعة هدوء قاتل .. قطعه صوت لاجين مخاطبًا منكوتمر وهو يشاهد النخاس والوحوش تقطع في لحمه وعظامه :

- أنت مدين باعتذار يا منكوتمر .

مكتبتنا
WWW.MAKTBTNABBI.COM

- أعرف يا سمو الأمير .. أنا الذي أشرت عليك بهذه الجارية ولكنها ستكون عندك في المساء .

- لا .. أنا لا أقصد ذلك .. أنت مدين باعتذار ولكن ليس لي .

- لمن إذن يا سمو الأمير ؟!

- للسباع والنمور .. لأنك قدمت لها هذا الطعام النتن .. ما أبشعه من فطور .. هكذا على الريق تقدم لها هذه الجيفة ؟!

فضحك منكوتمر .. وقال وهو ينظر نحو الوحوش :

- معك حق يا مولاي .. انظر .. ما أن تذوقت لحمه حتى عافت نفسها من أكله .. إنهم يتركونه بعد أن قطعوه .. لا لا .. ماهذا .. تعالى يا أمير وانظر .. إن الأسد يتقيأ .. ها ها .. ها ها .

* * *

كان سنقر وحماره ذاهبين إلى حيث أشجار البانجو .. وكانا قد ظلا لفترة لم يذهبا إلى هناك .. قال له سنقر وهو راكب فوقه :

- عشان تعرف غلاوتك عندي يا عم بانجو .. أسيب نازك يوم الصباحية واطلع معاك المشوار ده .. أنا عارف الكيف وحش ما انا مجرب .. بس انا خلاص .. مش ح اشرب النهاردة دخان .. أنا كنت باشرب عشان كنت عاوز أحلم .. عاوز أعمل خيال .. إنما دلوقت أنا عايش فيه .. أول مرة اعرف يعني إيه السعادة يا بانجو .

مكتبتنا
WWW.MAKTBTNABBIS.COM

نفسي انت كمان تشوف لك حمارة كده وتتلم عليها وتحس باللي انا حاسس بيه .. أنا .. أنا كان فيه موضوع كده يا بانجو عاوز أفاتحك فيه بس متردد .. أنا نفسي تبطل .. والله أنا من ساعة ما بطلت وأنا حاسس كده إن الدنيا حلوه ونفسي مفتوحة .

وخرج سنقر وبانجو من منطقة العمار .. وسارا في الصحراء وقد بدت أشجار البانجو من بعيد .. فنظر نحوها سنقر .. وقال لبانجو :

- الله يخرب عقلك يا بانجو .. ح ترجعنا تاني للشقاوة .. ما كُنا بطلنا .. بس اسمع .. أنا ح اشرب معاك المرة دي بس .. حجرين كده على خفيف .. عشان ما تضربش لوحدك .

وما أن دخلا إلى منطقة الأشجار حتى وجدا المكان غاصًا بالبشر .. وقد جلسوا يدخنون في شراهة .

اندهش سنقر وقال لبانجو :

- بس .. المكان اتهرش .. مصر كلها جاية تعمل دماغ يا عم .. أقعد بأه أما نلحق لنا نفس .

وأخذ بانجو ياكل الحشائش بشراهة .. أما سنقر فقد بدأ في رص الحجر فوق الجوزة .. وأخذ يشد الدخان باستمتاع .. فمال عليه أحد الجالسين بجواره وقال له :

- مساء الخيييير .

مكتبتنا
WWW.MAKTBTNABRIS.COM

نظر بانجو نحوه في ضيق وقال في زهق :

- مساء الخير يا عم .. فيه حاجة ؟ ده حجر بنضربه وماشيين .. ح تبص لي فيه .. ما قدامك جنينة حشيش أهيه .. روح أقلع لك شجرة واحرقها بعيد عني .. الله يحرقكوا يا شيخ زحمتوا البلد .

في بطء شديد وتثاقل .. كان سنقر عائدًا هو وبانجو وقد شربا من المخدر ما لم يشرباه من قبل .. كان سنقر يغني في سعادة ويرقص على ظهر بانجو ولم يعد يعنيه حملقة المارة فيه وصياحهم له :

- يا سنقر .. يا سنقر .

- بس ياد انت وهوه .. أنا مش عاوز اكلم حد يا معفنين يا جربانين .. انتوا إيش تكونوا عشان تتكلموا مع سنقر .

ثم ظل يغني :

أنا باكره النخاس .... ويارب يتقتل

وياخـد بالمداس .... ويخش المعتقل

وإيه وإيه .

- حلوه الغنوة دي يا بانجو .! عجبتك .!

- أنا سامعها من مغنواتي السنة اللي فاتت في المولد .. اسمه شعبان ابن عبد الحليم المرة الجاية ح اخدك تسمعه .. ده انت ح تحبه قوي .. عشان هوه كمان بيحبك .. ده بيغني للحمير .. تحب تسمع .

مكتبتنا
WWW.MAKTBTNABIS.COM

وظل يغني :

أنا بحب الحمار .... بجد مش هزار

هكذا إلى أن وصلا أمام الحمام والمارة يتدافعون خلفه .. يحاولون أن يكلموه بلا جدوى .

فوجد زحامًا شديدًا أمام باب الحمام وشركس يلطم ويبكي وقد سال الدم من فمه .

وزيتونة ملقاة على الأرض .. تلتقط أنفاسها بصعوبة وبطنها منتفخة .. فنزل سنقر من على الحمار وجرى نحوهما .

- إيه اللي حصل ياد يا شركس ؟

فقال شركس باكيًا :

- خطفوا نازك .. وضربوني أنا وزيتونة .

فصرخ سنقر في هلع ..

- خطفوا نازك ؟! مين اللي خطفها ؟! إنطق .. إتكلم .

قال شركس :

- مماليك الأمير منكوتمر .

شعر سنقر أن الأرض تميد به وأنه سيسقط .. زال كل أثر للدخان المخدر الذي ظل يشربه طول اليوم وجرى كالمجنون في الشارع وهو يصرخ :

مكتبتنا
WWW.MAKTBTNABRIS.COM

- يا شيخ تقي الدين .. الحقني .. إنجدني .. يا مسلمين .. يا شيخ تقي الدين .. يا قاضي القضاة .

* * *

ملفوفة في ملاءة .. طرحوها أرضًا تحت قدمي الأمير لاجين .. ثم فكوا الملاءة .. ليراها أمامه .. نازك .. رائعة الحُسن كلها أنوثة وإثارة وجاذبية ..

معجبًا نظر نحوها الأمير لاجين .. وعدل شاربه .. ليمسح ما نزل من ريقه وبلع ريقه وقال مأخوذًا :

- سبحان الله .. ما هذا الجمال ؟

ابتسم منكوتمر في ثقة وقال للأمير :

- اعترف لي يا مولاي أنني أعرف جيدًا ما الذي تحبه .

قال لاجين ولا يزال نظره معلقًا بنازك :

- كل يوم يزيد تقديري وثقتي بك يا أمير منكوتمر .

نظرت نازك نحوهما في رعب وهي تغطي ما بدا من مفاتنها .

فقال لها منكوتمر بغلظة :

- ماذا تفعلين يا جارية ؟! دعي الأمير يرى ما يسره .

قالت نازك بإباء :

- أنا مش جاريه .. أنا حُره .

مكتبتنا
WWW.MAKTBTNA.COM

فصفعها منكوتمر على وجهها .. فأوقفه الأمير لاجين :

- لا .. لا تضربها يا أمير .

ثم سألها بود :

- هل تعرفين من أنا يا نازك ؟!

- أنت الأمير حسام الدين لاجين .

- وإذا كنت أريدك .

- تريدني .. وأنا زوجة راجل تاني .

فنظر لاجين إلى منكوتمر وقال :

- زوجة .. زوجة من ؟

فقال باستهانة :

- زوجة حلاق .. خارسيس فلاح اسمه سنقر .

فقال لها لاجين :

- وحتى لو كنت زوجة لهذا الحلاق .. أنت تعلمين أنه لو عرف أنني أريدك .. لأتى بك هو بنفسه وقدمك لي عن طيب خاطر .

قالت نازك :

- لا يا سيدي .. أنا جوزي بيحبني ولا يمكن ح يقبل ان أي حد في الدنيا يلمسني .. ومش ح يسكت .

مكتبتنا
WWW.MAKTBTNABRIS.COM

فضحك لاجين ضحكة كبيرة وقال ساخرًا :

- آه .. ها ها .. إذًا نحن في خطر أمير منكوتمر .. سنقر حلاق مش ح يسكت .. بلغ الجنود أن يكونوا على أهبة الاستعداد .. ودقوا الطبول في القلعة .. ها ها .. سنقر قادم .

وبينما كان لاجين ومنكوتمر يضحكان دخل أحد الجنود وحياهما التحية العسكرية وقال :

- رسول يا سيدي .. يريد أن يكلم مولاي الأمير .

قال منكوتمر :

- ماذا يريد ؟!

قال الجندي :

- قال إنها رسالة سرية يجب أن يبلغها له بنفسه .

قال لاجين :

- دعه يدخل .

دخل مبروك .. الذي يعمل عند الشيخ تقي الدين قاضي القضاة .. وانحنى للأميرين .. ثم قال :

- سيدي الشيخ تقي الدين بن بنت الأعز يريد مولاي الأمير أن يذهب إليه الآن في مسألة مهمة وعاجلة .

مكتبتنا
WWW.MAKTBTNABIS.COM

قال منكوتمر غاضبًا :

- ولماذا لم يأت هو إلينا ؟!

فصرخ لاجين بحزم وشدة :

- ماذا تقول يا منكوتمر ؟! هل جننت .. إنه مولانا فضيلة الشيخ قاضي القضاة وشيخ الإسلام .. قُل له .. إن الأمير قادم وإنني أقبل يديه .

وخرج مبروك في ثقة وشمم وكبرياء .. وهو يحدج منكوتمر بنظره .. فغضب منكوتمر وعاتب لاجين قائلًا :

- لا يا مولاي الأمير .. أنت تقلل من شأنك أمام هؤلاء . من قاضي القضاة هذا حتى يأمرك بالمجيء ؟!

- اسكت يا منكوتمر .. اسكت .. تستطيع في هذا البلد أن تواجه السلطان نفسه .. إلا رجال الدين .. فأنت إن عصيتهم فقد عصيت الله وقلبت عليك العامة والسوقة والغوغاء فأهدرت دمك .

* * *

كان سنقر جالسًا أمام الشيخ تقي الدين قاضي القضاة وهو في قمة الثورة .. ولا يزال الشيخ يلاطفه ويهدؤه :

- اصبر يا سنقر .. صبرك بالله يابني .

مكتبتنا
WWW.MAKTBTNABBIS.COM

- دول خطفوها الكفرة قللاة الدين .. حد عارف بيعملوا فيها إيه دلوقت ؟!

- ما تخافش يا سنقر .. ربك - سبحانه وتعالى - اللي أوحالك انك تعتقها وتتجوزها على سنة الله ورسوله هو اللي ح يحميها ولو كانت في بُق السبع استهدا بالله كده .. وكله ح يتحل إن شاء الله .

كان صوت الشيخ تقي الدين وابتسامته الودودة يبعث الطمأنينة داخل أي إنسان .. ولكن سنقر لم يكن ليهدأ بأي حال من الأحوال .

وفجأة دخل الأمير حسام الدين لاجين وحوله الحرس إلى مجلس قاضي القضاة فتهلل الشيخ تقي الدين وبشيء له :

- أهلًا يا أمير لاجين .. أهلًا وسهلًا .

- يا مبروك .. خد الفرسان وأقعدوا بره .. واعمل لهم ما يريدون من المشروبات .

فشعر لاجين أن الشيخ تقي الدين يريده بدون الحرس .. فنظر لهم نظرة تعني أن ينتظروا بالخارج .. وجلس وقال له :

- أؤمر يا مولانا الشيخ .. لقد أرسلت في طلبي ولم أتأخر .

- طول عمرك كريم وشهم يا أمير لاجين .. ولذا يخلصك الله دائمًا من أعقد الشدائد ويكتب لك الخير والسلامة .. أدام الله عزك .. وأعطاك ما تتمنى بمشيئته بإذن الله - تعالى -

مكتبتنا
WWW.MAKTBTNABBI.COM

نظر لاجين إلى سنقر .. وقد أدرك على الفور سبب استدعاء الشيخ له .. وفهم الشيخ بحنكته أن الأمر صار واضحًا جليًّا .. فدخل في الموضوع بسرعة .. مشيرًا إلى سنقر :

- هذا الشاب المسكين يا أمير لا يملك من متاع الدنيا شيئًا كانت عنده جارية أعتقها وتزوجها وأشهر عليها هنا في دار القضاء فصارت حلاله شرعًا .. ولما عاد اليوم إلى بيته علم أن الأمير منكوتمر قد نزل بجنوده إلى بيته .. وخطف زوجته .. وهذا ما لا يرضاه الحق .. سبحانه وتعالى .. وما لا يرضي الله لا يرضي الأمير .. أليس كذلك ؟!

- لم يكن الأمر كذلك يا فضيلة القاضي .. فالجارية أنا اشتريتها من النخاس ودفعت فيها ألفي دينار .. ولما تأخر .. علم منكوتمر أنه أخفاها عند هذا الحلاق ليعود ويساوم من جديد .

فتنهد الشيخ قائلًا :

- بئس النخاسون وطباعهم .

- ولكن الأوراق الرسمية التي أمامي .. تجعل من هذه المرأة حلالًا وحقًّا لهذا الشاب ولذا فأنا أرى أن تعيدها إليه معززة مكرمة ويكون لنا مع النخاس شأن آخر .. ونجبره على أن يرد لك ما أخذ منك من أموال .

مكتبتنا
WWW.MAKTBTNABBI.COM

ارتبك لاجين وشعر أنه في مأزق وأن الشيخ قد أطبق الخناق عليه وانطلق الشيخ في حديثه بقوة وقد امتلك الموقف تمامًا :

- ولتعلم يا أمير أن الحلال بيّن والحرام بيّن .. ووجود زوجة هذا الشاب في قصرك الآن هو ذنب كبير .. أرجو من الله - سبحانه وتعالى - أن يغفره لك .

قال لاجين مستنكرًا :

- ولكن يا فضيلة الشيخ ؟!

فقاطعه الشيخ قائلًا بحسم :

- إن طريق المغفرة سهل وقريب .. تستطيع أن ترسل أحد رجالك الذين أتوا معك .. ويحضروا زوجة هذا الشاب .. فتعيدها له معززة مكرمة .. والتائب من الذنب كمن لا ذنب له .

لم يعد أمام لاجين أي فرصة للخلاص .

كان الشيخ تقي الدين قد أغلق عليه كل المخارج ولم يعد أمامه سوى أن يعيد نازك فرضخ على مضض .. وقال :

- الرأي رأيك يا فضيلة الإمام .. وحكمك نافذ .

- أستغفر الله يا أمير .. إنه حكم الله .

* * *

مكتبتنا
WWW.MAKTBTNABRIS.COM

الفصل الحادي عشر

على الطبلية جلس الأربعة سنقر ونازك وشركس وزيتونة يتناولان الطعام .. وخلفهم كان بانجو يأكل طعامه هو الآخر .. كانوا يضحكون في سعادة وقد شعروا بالانتصار .

قال شركس :

- وبعدين يا سنقر .. بعد ما وقفت قدام الأمير لاجين وزعقت له عمل إيه ؟!

قال سنقر :

- ح يعمل إيه يعني ؟ قعد يعتذر لي ويبوس على راسي .. ويقوللي أنا آسف يا سنقر .. ما كنتش أعرف انها مراتك .

قال شركس (سعيدًا) :

- الله .. الله .

وعاد سنقر ليكمل حكايته بحماس :

- قلت له اسمع .. تبعت حد من الرجالة الطوال الهُبل اللي زي قلتهم دول اللي جايين معاك يجيب نازك معززة مكرمة لحد عندي .

مكتبتنا
WWW.MAKTBTNABRIS.COM

صفق شركس سعيدًا :

- والله العظيم انت بطل يا سنقر .

- ما هو انا اسكت اسكت إنما لما بيفيض بيا ما باشوفش قدامي .

قال شركس مؤكدًا :

- انت ح تقول لي .. ما انا عارفك .

وشرد سنقر كأنه تذكر شيئًا :

- هوه أنا حكيت لكوا لما زغدته في كتفه ؟!

قال شركس بحماس :

- لأ .. هوه انت زغدته في كتفه .. انت ما قولتلناش ع الحتة دي .

قال سنقر :

- لأ .. زغدته في كتفه وأنا بازعق له .. كان واقف قدامي زيك كده يا شركس .. قلت له لازم تعرف أنت بتكلم مين ؟! إذا كنت انت أمير أنا أوسطى حلاق .. واوعى تفتكر إن السيف اللي في جنبك ده ح يهتني .. أنا كمان الموس في جيبي ومسنون .

أخذت نازك وزيتونة يضحكان :

- هما بيضحكوا ليه ؟

قال شركس :

- عشان مش عارفين قيمة الرجالة اللي أنيينهم وحاميينهم .

مكتبتنا
WWW.MAKTBTNABRIS.COM

فقال له سنقر :

- حاميين مين ؟ ده الأمير منكوتمر جم رجالته روقوك قدام مراتك ما عرفتش تقول بم .

قال شركس مستنكرًا :

- لأ .. ما تقولش كده يا سنقر .. هوه أنا ما حكيتلكوش أنا عملت إيه مع الأمير منكوتمر !

قال سنقر في غيظ :

- وله .. مش ناقصين فشر .. كل وانت ساكت .

* * *

كان منكوتمر يروح ويجيء كالأسد الهائج ولاجين جالسًا يفكر وقد بدا شاردًا قال له منكوتمر :

- عذرًا يا أمير .. أنا لم أكن موافقًا منذ البداية على ذهابك إلى هذا الشيخ .. إنها فضيحة .. صعلوك من العامة يأخذ جارية من أمير .. هل ذهبت هيبتنا وانحط قدرنا إلى هذه الدرجة .

- أنا لا أفكر في الهيبة يا منكوتمر .. أنا لا يشغلني سوى أمر واحد .

- وما هو يا أمير .

- نازك .. لا أنكر أنني تعلقت بها منذ اللحظة التي رأيتها فيها .. الشيء الغريب .. أنني بعد ما حدث تعلقت بها أكثر .. إن بها سرًّا عجيبًا .

مكتبتنا
WWW.MAKTBTNABIS.COM

- العجيب هو أمرك يا سمو الأمير .. أتتعلق بها ثم تتركها لهذا الصعلوك من أجل إرضاء هذا الشيخ الهرم ؟!

- حتى لا أخالف الشرع يا منكوتمر .. هي زوجة .

- وماذا لو كانت أرملة ؟! أعتقد أن الشرع يبيح الزواج من الأرامل .

نظر لاجين إلى منكوتمر .. وقد أعجبته الفكرة .. وفجأة سمع أصوات صليل سيوف وخيل تركض .. كانت معركة طاحنة تدور بالخارج وحريق هائل .. ودخل أحد رجال الحرس مذعورًا :

- سيدي الأمير .. المماليك الأشرفية يحيطون بالقصر وقد تعاركوا مع الحراس وأحرقوا بوابة القصر .

قال لاجين :

- إنهم يريدون رأسي يا منكوتمر .

قال منكوتمر بثقة وقد استل سيفه :

- أهلًا بهم .. لقد أتوا إلى حتفهم .

وقام لاجين هو الآخر وشهر سيفه .

وخرجا من القاعة .

* * *

مكتبتنا
WWW.MAKTBTNABIS.COM

أمام قصر لاجين قامت معركة هائلة بين مماليك لاجين ومماليك السلطان الأشرف خليل .. كان المماليك يريدون الانتقام من لاجين ليأخذوا بثأر أستاذهم الملك الأشرف الذي قتله لاجين مع بيدرا واستطاع كتبغا أن يستصدر له أمرًا بالعفو مما ضايقهم كثيرًا .. فوثبوا عليه يريدون قتله .. ولكن مماليك لاجين تصدوا لهم .. وعلم كتبغا بالأمر فأرسل المماليك السلطانية وانضمت إلى لاجين حتى قتلوا من المماليك الأشرفية عددًا كبيرًا وقُبض على الباقين .

وقام كتبغا في الصباح بقطع أيدي بعضهم وأرجلهم وقطع ألسنة الآخرين وصلب جماعة منهم على باب زويلة وعاشت مصر ليلة سوداء مات فيها عدد كبير من العوام وأصبح الصباح ومئات الجثث ملقاة في الطريق .. وأغلقت الحوانيت وعم الخوف والرعب في القاهرة .

واجتمع الأمير كتبغا في الصباح بالأمراء والقضاة وحضر الشيخ تقي الدين إلى قاعة السلطنة .

قال كتبغا :

- يا أمراء مصر .. ويا أولي الأمر قضاتها وأهل العلم فيها إن المماليك الأشرفية عاثوا فسادًا في الأرض .. وخربوا الديار وظلموا العباد وكان يجب أن نتصدى لهم ونكسر شوكتهم .. وهم الذين بدأوا بالعدوان والبادي أظلم .

مكتبتنا
WWW.MAKTBTNABRIS.COM

قال لاجين :

- فليسمح لي نائب السلطنة أن أتكلم .

فأعطاه كتبغا الإذن بالكلام :

- إن هؤلاء الأشرفية ستظل شوكتهم قائمة ما دام الملك ناصر محمد بن قلاوون في المُلك .. والملك الناصر .. طفل صغير والأمور لابد لها من رجل كامل تخافه الجند والرعية وتقف عند أوامره ونواهيه .

فثارت ضجة بين الأمراء لكلام لاجين .. الذي نظر نحو كتبغا .. وكأنه يشير له أنه المقصود بأن يتسلطن بدلًا من الناصر محمد .

فقال كتبغا :

- نحن لا نريدها فتنة .. إنما نريد أن ننسى أنفسنا وأطماعنا ولا نفكر إلا في مصلحة مصر .

من سخرية القدر أن كتبغا الذي يتكلم عن مصلحة مصر هو الذي أتاها غازيًا مع هولاكو زعيم التتار .. ابتسم الشيخ تقي الدين حينما تذكر ذلك .. ولحظ كتبغا ابتسامته بفراسته .. فهتف به :

- إن مولانا فضيلة شيخ الإسلام تقي الدين هو الأولى بأن نسمعه .. حتى يبارك لنا الله - تعالى - فيما سنتخذه من قرار .

مكتبتنا
WWW.MAKTBTNA.COM

صمت الجميع .. وتعلقت الأنظار بالشيخ تقي الدين .. الذي قال :

- أما أن يكون الحاكم بالغًا عاقلًا رشيدًا فهو أمر واجب وإذا كان السلطان الناصر محمد بن قلاوون .. يملك ولا يحكم فهذا ما لا يقبله الشرع ولا الدين .. الأهم من كل هذا من الذي يحكم .. وكيف يحكم .. إن الحاكم الذي نريده لابد أن يرعى مصالح الشعب .. يشعر بالفقير قبل الأمير .. يتقي الله فيما يفعل .. ويعلم أن الحكم اختبار وابتلاء وليس نعمة ولا مكافأة .. فالحاكم الظالم سيكون أول من يسأل عما فعله بالعباد من الظلم والقهر يوم القيامة .. ولذا نريده حاكمًا عادلًا واقفًا بجوار الحق .

هنا انتهز لاجين الفرصة وهتف وخلفه الأمراء :

- يحيا السلطان العادل زين الدين كتبغا .

- يحيا السلطان العادل زين الدين كتبغا .

ابتسم الشيخ تقي الدين ابتسامة ساخرة .

والتف الأمراء حول كتبغا يقبلون يده والأرض تحت قدميه فقام الشيخ تقي الدين ووضع يده على كتف كتبغا .. وقال له :

إن كنت أنت قدرنا فليعيننا الله عليك .. وإن كُنا نحن قدرك فليعينك الله علينا .

* * *

مكتبتنا
WWW.MAKTBTNABBI.COM

جلس كتبغا على عرش السلطنة حينما دخل عليه الأمير حسام الدين لاجين .. وقبل يديه ثم قبل الأرض بين قدميه .. وقال له :

- أنا لا أستطيع أن أعبر عن فرط سعادتي يا مولاي السلطان أن مصر بكم تبدأ عهدًا جديدًا .

قال كتبغا باسمًا :

- وأنت نائب السلطنة يا أمير لاجين .

- هذه ثقة كبيرة لا أستحقها يا مولاي السلطان .. وأتمنى أن أظل للأبد خادمك المطيع .

- مالك يا أمير لاجين .. أشعر أن بصدرك همًّا ! فهل تهتم بعد أن صرت نائب السلطنة ؟!

قال لاجين محاولًا الابتسام :

- لا شيء يا مولاي السلطان .. فهذه الحياة تعطي ما تريد لمن تريد وتحرمنا أشياء نريدها لتظل دائمًا منقوصة .

- اطلب ما تشاء يا لاجين .

- لا شيء يا مولاي .. المسألة تافهة .. ولكن أحيانًا يتعلق الإنسان بهذه التفاهات فتفقده سعادته بالأشياء العظيمة .. إنها .. جارية من الجواري .. لا أستطيع أن أملكها .

مكتبتنا
WWW.MAKTBTNABIS.COM

فضحك كتبغا ضحكة طويلة :

- جارية !!. وما المشكلة .. هي هديتي لك .

- المشكلة يا مولاي .. أنها ليست جارية .

- كيف هذا ؟! جارية وليست جارية ؟!

- لقد غمرتني بعطفك يا مولاي السلطان ولا أحب أن أزعجك بهذا الأمر الصغير .. فالمسألة معقدة والشيخ تقي الدين طرف فيها .

قال كتبغا :

- إذا قال السلطان هي لك .. فهي لك مهما كانت العقبات .. قل لي يا لاجين .. ما القصة بالظبط ؟!

* * *

كان سنقر ونازك وشركس وزيتونة قد أغلقوا على أنفسهم باب الحمام بعد ما حدث من معركة المماليك الأشرفية .. واختلال الأمن في القاهرة فتعطلت الأسواق ووقع الغلاء والفناء بالديار المصرية .. وانتشر الوباء وعظم في مصر وتزايد حتى كان يموت فيها كل يوم ألوف ويبقى الميت مطروحًا في الأزقة والشوارع ولا يوجد من يدفنه .. وأكل الناس من شدة الجوع الميتات والكلاب والقطط والحمير .. وأكل بعضهم لحم بعض .

مكتبتنا
WWW.MAKTBTNABIS.COM

كانت زيتونة راقدة وقد انتفخت بطنها وقد انهمر العرق على وجهها وقد بدا على وجهها الشحوب ونازك تضع لها الفوطة الباردة على رأسها لتقلل من درجة حرارتها المرتفعة وسنقر واقف وهو في قمة الضيق .. وقد بدا على الجميع الشحوب والهزال من قلة الطعام .

قالت نازك :

- زيتونة تعبانة قوي يا سنقر .

- وشركس راح فين ؟

- راح يشوف لها أي حاجة تاكلها بقالها أسبوع ما داقتش الزاد .

- ح يشوف فين .. البلد كلها مقفلة .. إيه اللي خرجه ده .. الطاعون خلص على الناس كلها .. أنا مش قايل ماحدش يخرج .

وإذا بطرق شديد على الباب وصوت شركس :

- الحقني يا سنقر .. افتح يا سنقر .

فجرى سنقر وفتح الباب ليجد شركس حاملًا في يده إناء به طعام .. وخلفه العامة يحاولون أخذه منه وقد كادوا يفتكوا به .. فانهال سنقر عليهم بعصاه حتى أبعدهم بينما دخل شركس مسرعًا وتعاونا على غلق البوابة ليمنعوا العامة من الدخول .. ثم استلقيا على الأرض وهما يلتقطان أنفاسهما .. وقد قام شركس وهو يؤكل زيتونة مما في الإناء ..

مكتبتنا
WWW.MAKTBTNABIS.COM

فصرخ فيه سنقر :

- انت خرجت روحت فين ياله ؟!

- روحت أشوف لها أي حاجة تتاكل .. ح اسيبها كده يعني ؟! مش عشاني يا سنقر .. عشان اللي في بطنها ده (ثم أشار إلى زيتونة بحنان وهو يقدم لها الطبق) .

- كُلي يا زيتونة .

- وإيه اللي انت جايبه ده ؟

- دي قطة بلدي .

- قطة ؟!!.

- بقالي ثلاث ساعات باجري وراها .. لحد ما مسكتها ودبحتها وسلختها أول ما الناس شموا ريحتها كانوا ح ياكلوني .. الناس كلت بعضها بره يا سنقر .. الكلب وصل عشرين دينار ده لو لقيته .. الحمار في الوكالة وصل ميت دينار .. الناس ح تعمل إيه ؟! أكلوا الكلاب والبغال والحمير ..

تحرك بانجو مبتعدًا في خوف حينما سمع ما قاله شركس من أكل الناس للحمير ..

وقال شركس :

- خلاص يا سنقر البلد ما بآش فيها ولا حمار .. كله اتاكل إحنا خلاص ما بآلناش قعاد في البلد دي .. أنا حاخد زيتونة وأسافر .. أهج .

مكتبتنا
WWW.MAKTBTNABBI.COM

قال سنقر :

- تسافر فين ياخويا ..

- ح أروح الحبشة .. أهلها هناك برضه ومش ح يسيبونا .

- حبشة إيه دول بياكلوا البني آدمين هناك ..

- هما برضه مش ح يرضيهم ياكلوا جوز بنتهم .. الجماعة الحبش دول أنا معاشرهم ناس حنينين قوي ما ياكلوش إلا الغرب إنما إحنا هنا .. الأخ بياكل أخوه والابن بياكل أبوه .. الناس اتنزعت من قلوبها الرحمة .. أنا لما خرجت امبارح روحت عند كرجي ابن عمتي .. عزموني على العشا .. قعدت أكلت معاهم .. وبعد ما شربنا الشاي وغسلنا إيدينا وحمدنا ربنا .. عرفت ان اللي إحنا كنا بناكله ده كان كرجي ابن عمتي .

- وكان طعمه حلو يا شركس ؟!

- قوي يا سنقر أصل أنا بحب كرجي طول عمري .. والواحد يقول الصراحة .. حتى بعد ما مات لحم كتافي من خيره .

شعرت نازك بدوار فكادت تسقط جرى عليها سنقر وسندها .. وقد بدا عليها الإعياء والشحوب :

- نازك .. مالك يا نازك ؟!

- أنا حاسة إني ح أموت يا سنقر .

مكتبتنا
WWW.MAKTBTNABBIS.COM

- أصبري يا نازك .. أنا ح اخرج أجيب لك أكل من أي حتة .

وقف سنقر في حيرة أمام الباب لا يعرف ماذا يفعل .. ومن أين يأتي بالطعام لنازك في ذلك الوقت العصيب فقال له شركس :

- طيب ما هو بانجو موجود يا سنقر .. على الأقل متربي هنا وعارفين بياكل إيه .

فنظر له سنقر نظرة غاضبة .. فشعر شركس بالذنب واستدرك مبررًا :

- يعني هو بانجو أغلى عندك من نازك ؟!

وفجأة طرق الباب .. فتوقف الجميع وقد ملأهم الرعب .. وقد ظنوا أن العامة قد أتوا ليقتحموا عليهم الحمام مرة ثانية .. وسمعوا من على الباب وهو يطرق الباب بعنف ويقول :

- افتح فالاد سنقر إحنا حرس سلطان معظم .

فتح سنقر الباب فوجد أمامه حرس السلطان راكبين على خيولهم وفي أيديهم الطعام يأكلونه بنهم .

- تعالى معانا فالاد عشان سلطان معظم عاوز يشوفك .

فقال سنقر :

- يبأى أكيد عاوز يحلق .. أنا خدامه .. بس .. أنا ..

مكتبتنا
WWW.MAKTBTNABBIS.COM

ونظر إلى الطعام الذي في يد الفارس وقد بلع ريقه .

- ممكن لقمة صغيرة من اللي في إيدك دي .. مراتي ح تموت من الجوع.

أعطى له الفارس ما في يده من طعام فأعطاه سنقر لنازك .. التي قالت له :

- لأ .. كلها انت يا سنقر .. إنت رايح شغل عشان تقدر تكمل .

- فمد سنقر يده بالطعام نحو فم نازك وقال لها بحب جارف :

- يا شيخة كلي بأه .. ده رزقك وجاي لك .. كلي انتي أنا رايح قصر السلطان .. يعني أكيد ح أعتر في أي لقمة هنا ولا هنا .. عشان خاطري .. كُلي يا نازك مش ماشي إلا لما تاكلي .. خليني بأه اتأخر على السلطان .

أخذت نازك تأكل الطعام ..

وسنقر يبتسم لها ..

ثم أغلق باب الحمام سعيدًا .. ومضى مع فرسان السلطان .

* * *

مكتبتنا
WWW.MAKTBTNABBIS.COM

الفصل الثاني عشر

داخلًا إلى القلعة وحوله فرسان السلطان .. كان سنقر يرى وهو يتعجب آلاف الأشولة التي تحمل القمح والشعير والطعام والفاكهة محمولة على الجمال والبعير .. وهي تشون في مخازن الغلال السلطانية .. ثم وجد فضلات الأطعمة وهي ملقاة في الخرابة خلف القلعة .

فسأل سنقر الفارس :

- إلا قوللي يا ريس الفرسان .. الزبالة دي انتوا عاوزينها ؟!

- تقصد إيه فالاد ؟!

- أنا قصدي يعني بعد ما احلق لعظمة السلطان ابأه آخد شوية معايا وأنا راجع ؟

- فالاد فلاح حقير يأكل فضلات ؟!

- إحنا لاقيين الفضلات يا ريس !!

ومضى سنقر والفرسان إلى داخل القلعة .

* * *

مكتبتنا
WWW.MAKTBTNABBIS.COM

لم يكن سنقر متهيبًا أو خائفًا وهو يدخل إلى قاعة السلطنة .. كان يدرك جيدًا أن الملك الناصر محمد بن قلاوون يحبه .. فقد تلاقت طفولته مع طفولة سنقر الطبيعية .. وقد رتب سنقر تفكيره على أن ينتهز الفرصة وهو يحلق للسلطان ويطلب منه شوالًا من القمح .. وقال سنقر لنفسه :

السلطان لن يرد لي طلبًا .. فهو لا يزال طفلًا لم يمتلئ قلبه بعد بالقسوة والوحشية المملوكية .. الأطفال هم أحباب الله .. بالتأكيد سيرق قلبه ويعطيه ما يريد .

كان سنقر قد مر في طريقه إلى قاعة السلطنة بالقاعة الفسيحة التي بها الفسقية وشرب كثيرًا من السكر بالليمون الذي بها فارتوى .. وجرى الدم في عروقه وشعر أنه أحسن حالًا .. ثم قال لنفسه :

- سأطلب شوالًا من القمح وشوالًا من التبن لبانجو .. لقد صبر كثيرًا حقًا عشرة أيام لم يذق فيها شيئًا حتى نحل وظهر عليه الهزال ولكن .. لن أنساك يا بانجو .. ستتعشى عشوة فخمة هذه الليلة ..

دخل سنقر قاعة السلطنة ..

كان السلطان جالسًا على عرشه ..

لمحه سنقر من بعيد ..

ولكن .. ما هذا .. إنه ليس هو .. لم تكن ملامح السلطان واضحة من بعيد ولكنه كان أكبر كثيرًا وأطول وأضخم من الملك الناصر ..

مكتبتنا
WWW.MAKTBTNA.COM

هل يعقل أن يكون قد كبر بهذه الصورة في هذه الأيام القليلة ؟! وأى أيام !!. أيام المجاعة .. جائز ! كل شيء جائز ! السلاطين يفعلونها .

اقترب سنقر من السلطان وقبَّل الأرض عند قدميه دون أن يرفع رأسه .

واخترق أذنه صوت السلطان .. كان صوتًا خشنًا أجش .. صوت رجل وليس صوت طفل .. إنه يعرف صوت الناصر جيدًا .. كان السلطان كتبغا الذي يقول له :

- فالاد حلاق .. انت لك زوجة اسمها نازك ؟

- نعم يا مولاي السلطان .. والله سايبها في البيت حالتها وحشة قوي .. مش لاقيين العيش الحاف يا مولاي .. إنما .. ما شاء الله فخامتك كبرت قوي .. بالسرعة دي ؟!

ثم عاد سنقر يتأمل ملامح السلطان ولم يصدق نفسه ..

إنه كتبغا الأتا بك الذي كان واقفًا بجوار السلطان وهو يحلق له في المرة الماضية .

- أمال فين مولاي السلطان ؟!

- هل هذا سؤال فالاد غبي ؟!

- أنا آسف يا مولاي .. أصل أنا كنت فاكر ..

مكتبتنا
WWW.MAKTBTNABRIS.COM

- فالاد سلطان صغير خلاص إجلس في حريم مع أمه مش يكون سلطان تاني .

- ياللا في داهية .. حتة عيل بيعملها على روحه ح يبأى سلطان ازاي ؟! ربنا يخليك لينا يا مولاي السلطان أيوة كده .. رجعت هيبة السلطنة على إيديك يا مولاي السلطان .

فضحك كتبغا ضحكة طويلة .

- إنت تحب سلطان يا فالاد سنقر ؟

- أحبه ! ده أنا عبدك وخدامك يا مولاي السلطان .

- إنت قول إن زوجة إنت مريض ؟

- من الجوع يا مولاي السلطان .

- إسمع فالاد سنقر .. إنت طلق زوجتك .. وأنا أعطيك منحة سلطانية عظيمة .. أنا أعين إنت رئيس على شونة الغلال والطعام .

بُهت سنقر حينما سمع ذلك .

- أطلق مراتي ؟! إزاي يا مولاي السلطان ؟!

- من شان يتجوزها أمير لاجين نائب السلطنة .

- هوه بأه نائب كمان ؟! بس انا ما أقدرش أعيش من غيرها يا مولاي السلطان .. ما أقدرش اطلقها .

مكتبتنا
WWW.MAKTBTNABIS.COM

فغضب السلطان وصرخ فيه :

- إنت يرفض طلب سلطان فلاح حقير حيوان ؟!

- أبوس رجلك يا مولاي السلطان .. دي هي دي اللي طلعت بيها من الدنيا !

- إسمع فالاد .. إنت إطلع من هنا على الشيخ تقي الدين قاضي القضاة .. طلق زوجة فورًا .. مفهوم .. خذوه .

وأخذ الحرس سنقر خارجين وهو في قمة الهلع والضيق محاطًا بالحرس مكبلًا بالقيود والأغلال .

* * *

بكى سنقر بكاء شديدًا أمام الشيخ تقي الدين .. وحرس السلطان واقفون خلفه .. فقال لهم الشيخ تقي الدين :

- واقفين هنا ليه ؟! إستنوا بره .

فقال أحدهم :

- لنكون شهودًا على الطلاق يا مولانا .. سلطان معظم أمرنا ألا نتركه إلا بعد أن يطلق .

فاحتد الشيخ تقي الدين وصرخ فيهم :

- السلطان ليس له أن يقرر من يشهد ومن يقف أمامي .. أنا هنا قاضي القضاة اخرجوا واقفلوا الباب وراكم .

مكتبتنا
WWW.MAKTBTNABBIS.COM

فخرجوا مسرعين وقد أغلقوا الباب خلفهم .

نظر الشيخ إلى سنقر وربت على كتفه بحنان :

- بتعيط ليه يا سنقر .. خليك شديد كده وخللي إيمانك بالله كبير .. المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف .

- البلاوي زادت فوق دماغ عبدك الفقير يارب .. مش إنت خلقتني .. سايبني ليه ؟! حلها بأه .. حلها من عندك .

- ما تكفرش يابني .. كلنا يابني فقراء إلى الله ..

فَقْـرٌ كَفَقْرِ الأَنْبِيـاءِ وغُرْبَـةٌ وَصَبَابَةٌ ليسَ البَلاءُ بِوَاحِدِ

- هو ده وقت شعر يا مولانا ؟!

- أصل أنا شايفها سهلة ومحلولة وليها مخرج بإذن الله ..

- محلولة إزاي ؟! ده السلطان ؟!

- إنت عمرك جيتني ومشيت إلا وانت مجبور الخاطر ؟!

نظر سنقر نحوه كالغريق :

- إيه الحل يا شيخ تقي الدين ؟! أبوس إيدك .. إلحقني بيه .

فأشار تقي الدين إلى باب آخر بالحجرة :

- شايف الباب ده .. أهو ده المخرج .. ده باب بيتي .. ح تطلع منه دلوقتي .. من غير ما حد يحس .. وكأنك لسه قاعد معايا ..

مكتبتنا
WWW.MAKTBTNABRIS.COM

ح يطلعك ع السكة التانية .. تروح تاخد مراتك في إيدك وتسيب البلد دي دلوقتي حالًا ..

- وأروح فين يا مولانا ؟!

- على سوق الجمال .. ح تسأل على واحد اسمه الحاج محمد المصري تقول له بس الشيخ تقي الدين باعتني ليك .. وهوه ح يتصرف .

فارتمى سنقر على يدي الشيخ تقي يقبلهما .

فأبعدهما الشيخ بسرعة :

- أستغفر الله العظيم يابني .. ياللا اعملك هِمه .. وموفق إن شاء الله .

فتح سنقر الباب الآخر وخرج مهرولًا وهو يخفي وجهه خشية أن يراه أحد.

* * *

كان الوجوم مسيطرًا على وجه نازك وشركس وزيتونة وكان شركس يبكي بكاء مرًّا حينما دخل سنقر مسرعًا مهرولًا وهو يحمل معه كيسًا من التبن ..

- ياللا .. ياللا يا نازك لازم نمشي دلوقتي .. ياللا يا بانجو التبن بتاعك جبتهولك أهوه .. إيه مالكوا فيه إيه .. بتبصولي كده ليه ؟!

نظر سنقر على جانب الحمام فوجد بانجو ملقًى على الأرض جثة هامدة بلا حراك .. ارتعش سنقر حين شاهد بانجو .

مكتبتنا
WWW.MAKTBTNA88.COM

- ماله بانجو .. إيه اللي حصل له .. ده انا جايب له التبن معايا .. عشان لسه قدامنا مشوار طويل .

وجرى على بانجو يهزه باكيًا :

- قوم بأه يا بانجو .. مش ناقصاك ..

ثم أخذ ينثر التبن أمام رأسه :

- بلاش الحركات دي .. أنا عارف انك بقالك عشر تيام ما كلتش .. بس انا زيك .. والله .. معلش يا بانجو .. إتحمل على نفسك شوية ما انت ياما اتحملت .. الشيخ تقي الدين حلها خلاص .. ح نمشي من هنا .. ح نروح بلاد تانية بعيدة .. الناس فيها ما بياكلوش بعض ..

- قوم بأه يا بانجو .. قوم يا بانجو .

وارتمى سنقر على جسد بانجو منفجرًا في البكاء ..

فأخذته نازك في حضنها وهي تربت عليه وانفجر الجميع في بكاء هيستيري كانوا لا يعرفون علام يبكون .. على الحمار أم على أنفسهم .

* * *

في بيت قاضي القضاة كان آذان العصر يؤذن .. ولا يزال الحرس واقفين وقد شعروا بالقلق والتوتر لتأخر سنقر عند السلطان إلى أن فتح الباب .. وخرج الشيخ تقي إلى المسجد .. وخلفه رجال الدين ..

مكتبتنا
WWW.MAKTBTNA.COM

يالالا ياخونا عشان صلاة العصر .. ربنا يتقبل من الجميع .. إن شاء الله .

اقترب منه أحد فرسان السلطان وسأله في غلظة :

- فين فالاد سنقر يا مولانا .

- سنقر !!. سنقر مين ؟!

- فالاد حلاق فلاح جيبناه عشان طلق زوجته بأمر مولاي سلطان .

- رفض يطلق .. إن أبغض الحلال عند الله الطلاق .

ودخل الشيخ تقي الدين إلى المسجد بينما وقف الحرس وهم في قمة الخوف والدهشة لما ينتظرهم من عقاب شديد لأنهم تركوا سنقر يهرب من بين أيديهم .. وعلا صوت الشيخ تقي الدين من داخل المسجد :

- الله أكبر .

* * *

في سوق الجمال كان سنقر راكبًا الجمل وخلفه نازك .. والشيخ محمد المصري يودعهما .. وخلفهما الدليل راكبًا على جمل آخر .. وقد مضى بهما الجمل على رمال الصحراء وكان الوقت عصرًا .. والكثبان الرملية تمتد في الأفق بلا نهاية .. تمامًا كَحَكْمِ المماليك الذي لا ينتهي وكان سنقر يتعجب من مقدرة الجمل الذي يصحبهما في معرفة الطريق بسهولة .. إن عبقرية المصريين من كثرة ما عانوا من التضييق عليهم

مكتبتنا
WWW.MAKTBTNABBIS.COM

والحصار والقهر أنهم عرفوا دائمًا كيف يتسللون ولو من ثقب إبرة ويتركونها هاربين بمهارة يحسدون عليها .. مصر التي كانوا يحبونها ويغنون لها ويقبلون ترابها كثيرًا ما تأتي تلك اللحظة العصيبة التي يصبح الفرار منها هو أغلى أمنية للمصريين .

* * *

في بيت الجواري .. كانت أم شركس ومعها الجواري يساعدن زيتونة التي تلد وهي تصرخ من آلام الولادة .. بينما كان شركس يروح ويجيء في قلق .. وهو يدعو :

- أسترها يارب .. يارب قومها بالسلامة .

وخرجت أم شركس وهي تزغرد ومعها الجواري يحملن المولود :

- واد زي القمر يا واد يا شركس .

نظر شركس إلى الطفل الرضيع مبتسمًا :

- بس ده غامق قوي يا أمه ؟!

- ح يطلع ابيض لمين يا روح امك .. ما آدي امه وآدي ابوه !

- بس دمه خفيف .

- ح تسميه إيه يا شركس ؟!

- ح اسميه بانجو .

* * *

مكتبتنا
WWW.MAKTBTNABIS.COM

على شاطئ البحر في دمياط .. كانت المركب واقفة وعليها البحارة .. وكان الميناء مزدحمًا بأمواج من البشر .. لا يقل هديرها وصخبها عن أمواج البحر المتلاطم وكأن البحر يعبر عما بداخل نفوسهم .. من رحمة ربنا بنا أنه خلق لنا البحر .. فحينما تضيق اليابسة بمن عليها يصبح البحر حلًا ومهربًا ومتنفسًا .. قال أحد المسافرين لزميله :

- لا أعلم لماذا يخشى الناس البحر .. هل يخافون من الغرق ؟! كل هؤلاء الوافدين على رصيف الميناء غرقى .. وغرق اليابسة أكثر شراسة وعنفًا من غرق البحر .

إذا نظرت إلى المشهد لشعرت أن مصر كلها هاربة من واقع أليم .. الفقراء هاربون من انقطاع الرزق والأمل والقهر والظلم والطغيان والأغنياء هاربون بما استطاعوا أن ينهبوه من كدِّ هؤلاء الفقراء .. هؤلاء في قوارب متهالكة منهارة غارقة بالتأكيد إلا أن يشاء الله وتصل إلى أي شاطئ .. والأغنياء في مراكب فخمة قوية تعلم جيدًا الشاطئ الذي سترسو عنده .. بعضهم يقول إن الأغنياء يذهبون إلى بلاد الإنجليز ..

قال أحد المسافرين الفقراء في حقد دفين :

- ولماذا لا تأخذنا قواربنا إلى بلاد الإنجليز .

فرد عليه أحدهم وقال :

- إن بلاد الإنجليز لا تحب الفقراء .

مكتبتنا
WWW.MAKTBTNABIS.COM

وكـــان سنقـــر ونـــازك جالسين على رصيف الميناء وقد أعد كل منهما بؤجة وضعهـــا بجانبه ناظرين نحو البحر .. والمركب التي تمتلئ بالركاب المسافرين .

قال لها سنقر :

- ح نسمي الواد تقي الدين .

فقالت نازك باسمة :

- ولو طلع بنت ؟!

قال سنقر :

- يبأى نسميها نازك .. عشان يبأى معايا اتنين نازك .

قالت نازك :

- إنت بأيت طماع قوي على فكرة .. وح تصرف علينا منين ؟!

قال سنقر وهو يربت بثقة على عدة الحلاقة الموجودة بجواره :

- طول ما معايا العدة .. خلاص .. الحلاق ما بيغلبش .. آدينا بقالنا 3 شهور في دمياط بأكلك الشهد .. ولا ح تنكري ؟! إحنا حوشنا كام دلوقت يا نازك ؟

أخرجت نازك الصُّرة من صدرها فارتجف سنقر وصرخ فيها :

- إنتي بتعملي إيه ؟ شيلي إيدك من صدرك .. الناس بتبص علينا .. أنا مش خايف ع الصُّرة .

مكتبتنا
WWW.MAKTBTNA.COM

فضحكت نازك .. وقالت :

- أنا ما يهمنيش حد طول ما انا جنبك .. الراجل اللي قدر يحميني من الأمير لاجين .. محدش يقدر يقف قدامه .

فابتسم سنقر في ثقة وقال :

- والله لو كان السلطان نفسه ما أخليه يلمس شعره منك يا نازك .. لاجين مين ده اللي يقف قدامي .. ده حتة أمير لا راح ولا جه .

وبينما هما جالسان مر بجوارهما أحد البحارة ومعه زميله .. فقال له :

- عرفت اللي حصل .. مش الأمير لاجين خلع السلطان كتبغا !

- إنت بتقول إيه ؟!!

- وبأه هو السلطان .

- أعوذ بالله .. خيرًا تعمل شر تلقى .. مش ده اللي السلطان كتبغا جابه وكبره وجاب له العفو بعد ما كان رايح في داهية .. دي آخرتها ؟!

- مماليك في بعض يا عم .. إحنا مالنا ؟!

ارتعد سنقر حينما علم أن لاجين أصبح هو السلطان .. وقال لنازك :

- لا .. البلد دي ما بآلناش قعاد فيها .. قومي بينا يا نازك ح نسيبها دلوقت حالًا .

مكتبتنا
WWW.MAKTBTNABBIS.COM

وأخذها من يدها مهرولًا نحو بعض البحارة الجالسين على الميناء وهي مشدودة إليه لا تعلم إلى أين سيقودها سنقر هذه المرة .. أو بالأحرى إلى أين ستلقي بها الأقدار واقترب من البحارة الواقفين على الرصيف وهتف بأحدهم قائلًا :

- لو سمحت يا أخ .. أنا باسأل على المعلم بحري الدمياطي ؟

- ما هو المعلم بحري قدامك .

فقال له بحري :

- أؤمر يا أخ .. أيها خدمة .

- أنا كنت عاوز اسافر معاك يا معلم في المركب اللي طالعة دي .. أنا ومراتي .

نظر المعلم بحري نحو سنقر ونازك فاطمأن إليهما .. كان يعرف بفراسته ومن نظرة واحدة إلى وجه المسافر السبب الذي يدفعه للهروب كان يقرأ القصص في الوجوه .. وما أكثرها .

- طيب بس النفر بخمسين دينار .. إنتوا الاتنين تدفعوا 100 دينار .

- ميت دينار .. ده كتير يا معلم .. والله أنا ما معايا إلا خمسين .. خدهم .. ولما نوصل بالسلامة ابأى أسدد هملك .. ده انا حلاق وكسيب .

مكتبتنا
WWW.MAKTBTNABIS.COM

- معلش ياخويا .. إنت عارف كله بيهج اليومين دول والطلب على السفر كتير .. شايف .. كل العالم اللي واقفة دي عاوزة تسافر .. حتى الشباب الصغير مش طايق يقعد فيها .

- طيب اسمع يا معلم .. خد مراتي وصلها لحد ما انا أكون لميت القرشين واحصلها معاك لما ترجع بالسلامة .

فرفضت نازك عرض سنقر :

- لا يا سنقر .. أنا لا يمكن امشي من هنا وأسيبك .

فزجرها سنقر وهمس لها حتى لا يسمعه المعلم بحري :

- إسمعي اللي باقولك عليه .. روحي انتي وانا كام يوم واجيلك .. أهم حاجة تاخدي بالك من نفسك ومن ابني اللي في بطنك ده يا نازك .. وآدينا ضحكنا ع الراجل .. مش بيقول النفر بخمسين دينار .. أهو انتي والوادح تسافروا بخمسين دينار .. ياللا .. ياللا يا نازك .

وركبت نازك المركب وهي تشير لسنقر من على سطح المركب وقد وقف سنقر على الميناء يشير لها والدموع تترقرق في عينيه :

- خللي بالك من نفسك يا نازك .. خللي بالك من الواد .

إلى أن تحركت المركب .. وأخذت تبتعد تدريجيًّا عن الميناء .. وقد بدا سنقر متأثرًا للغاية .. ثم جلس على الرصيف منهارًا وأخذ يجهش

مكتبتنا
WWW.MAKTBTNABIS.COM

بالبكاء فقد اكتشف لأول مرة أنه فقد كل شيء في حياته .. بانجو .. ونازك .. والحمام .. وجيرانه .. وشعر سنقر بوحدة قاتلة مفاجئة .. كأنه ولد اليوم فقط أو كأنه مات وتاقت نفسه للعشب المخدر الذي كان يتناوله مع بانجو في المراعي .. كم كانت أيامًا جميلة .. برغم قسوتها .. إنما هي بالتأكيد أجمل من تلك اللحظة العصيبة التي يمر بها الآن .. يكفي أنه عاشها ويكفي أنها مرت .. إن الأيام التي تمر مهما كان بها من بؤس وشقاء .. هي أيام جميلة .. الكارثة في تلك اللحظة وفي تلك الأيام القادمة التي لا يعلم سنقر كيف ستمر عليه .. وأفاق سنقر من شروده على ضجة هائلة بجواره .. وإذا بمجموعة من الفرسان المماليك على خيولهم يتقدمون نحوه .. كالذئاب الجائعة ورجل ضخم غليظ الشارب يزجره بقسوة وهو ينهال بالسوط فوق جسده :

- إنت مين فالاد .. وإيش تسوي هنا .. إنت لص .. عاوز إهرب من بلد فالاد !

وأطبق الفرسان المماليك على سنقر .. كأنهم وجدوا فأرًا يطل من أحد الشقوق وأمسكوا به في غلظة .. بعد أن أشبعوه ضربًا وحملوه وهو لا يعرف إلى أين هم ذاهبون به .

* * *

مكتبتنا
WWW.MAKTBTNABIS.COM

في سجن من سجون المماليك أُلقي بسنقر بين عدد من المساجين كلهم من العوام يبدو عليهم الفقر والأسى ..

كل سجون الدنيا شيء .. وسجون المماليك شيء آخر .. فالزنازين المملوكية صناديق مقفلة تحت الأرض .. لا توجد حتى طاقة صغيرة في أعلى الزنزانة تلك النافذة ذات القضبان التي ليس لها من فائدة سوى أن يشرد المسجون بذهنه بعيدًا خارج الزنزانة .. ولكنهم حرموهم من هذه أيضًا .

ارتمى سنقر بين المساجين الذين ملأوا الزنزانة تمامًا .. بحيث إن الفرد لا يستطيع أن ينام إلا على أحد جنبيه .. وقد التصقوا تمامًا بعضهم بعضًا حتى أنهم صاروا جسدًا واحدًا .. كان الرجل ذو الشارب الغليظ ينهال عليه بالكرباج .. في تشف وغل وسعادة غامرة .. وكأن ثأرًا قديمًا كان بينه وبين كل واحد فيهم .. وبعد أن تعب من الضرب بالسوط .. أخذ ينعتهم بأبشع الألفاظ وأحقرها .. ثم أغلق باب الزنزانة وبصق عليهم .. ومضى .

نظر سنقر فوجد بجواره رجلًا أشعث الشعر عجوزًا ينظر نحوه .. ويشجعه بعينيه .. ويهز له رأسه .. ثم وضع يده على كتفه وقال له :

- معلش يابني .. تشجع .. تحمل .. أصبر .. ربنا ح يطلعنا من هنا على خير إن شاء الله .

مكتبتنا
WWW.MAKTBTNABRIS.COM

فقال له سنقر بألم :

- أنا ما عملتش حاجة يا عم الشيخ !

فرد عليه الشيخ بأسى وعمق :

- في عصور الظلم والطغيان مش لازم الغلابة اللي زيي وزيك يعملوا حاجة عشان يترموا في السجن .

- إنت تهمتك إيه يا أبويا ؟!

قال الشيخ وهو يتنهد :

- كنت ماشي في الشارع .

- أيوة .. تهمتك .. تهمتك إيه ؟!!

- ما قلتلك ! كنت ماشي في الشارع .

- بس !!. وبقالك قد إيه في السجن ؟!

- عشرين سنة .

- يا نهار إسـود .. ده انا كنت ماشي في الشـارع أنا كمـان وكنت قاعد ع الرصيف يعني أنا كده عندي تهمتين .

- إسمع يابني .. إنت لسه شاب والعمر قدامك .

- قدامي إيه بأه ؟! إذا كان انت بقالك عشرين سنة .. أمال أنا ح يقعدوني قد إيه .. ده لاجين بأه السلطان ..

مكتبتنا
WWW.MAKTBTNABIS.COM

قال الرجل وهو يلتقط أنفاسه بصعوبة :

- خليني أكمل كلامي .. أنا حاسس إن نهايتي قربت ..

- دى نهايتي أنا اللي قربت يا عم الشيخ .

نظر الشيخ حوله بتوجس ثم همس لسنقر في أذنه :

- أنا ح اديلك خـريطة .. أول ما تخـرج من هنـا تروح للمطـرح اللي ح أوصفهولك .

قال سنقر سعيدًا :

- تبأى مخبي كنز يا راجل يا طيب ؟

- إسمعني .. خليني أكمل .. ح تروح على حدود بلاد ستان في المغارة القبلية اللي قدام قلعة المغول .

قال سنقر بلهفة :

- أيوة .. كمل يا عم الشيخ لتطلع روحك قبل ما تقول ع المفيد .

- حتلاقي راجل طيب إسمه الحاج سليمان .. ح تقول له إنك جاي من طرفي .. هو له عليا دين ما قدرتش ادفعهوله .. لو ربنا قدرك بعد ما تخرج وعملت قرشين أمانة عليك تسدده عني عشان أموت وأنا مرتاح .

مكتبتنا
WWW.MAKTBTNABRIS.COM

قال سنقر محبطًا :

- طيب موت بأه .. قصدي نام .. نام يا عم الشيخ .. نام وارتاح خليني انام أنا كمان .. احمد ربنا إنك لاقي نومة تنامها في الزنزانة الحلوة دي .. بأه مديون وعمال تبص حواليك وتقوللي أديلك الخريطة ؟!

استطاع سنقر بعد أن اعتادت عيناه على الظلام الدامس في الزنزانة أن يتأمل وجوه الراقدين بجواره والتي ارتسمت على ملامحهم حالة من الاستسلام التام .. ذلك الاستسلام الذي يصل إلى الرضا بما هم فيه .. والذي يقترب من الموت .. الأبدان حية .. إنما الوجوه ميتة .. لا يتحرك فيها رمش ولا حاجب ولا عضلة من عضلات الوجه .. إلا واحدًا منهم كان يحدق في الظلام ويبتسم ابتسامة ثابتة غريبة .. وينظر في اتجاه واحد .. كأنه يرى أشياء .. لا يراها إلا هو .. وابتسامة كهذه في مثل هذا المكان تصبح شيئًا شاذًّا وغريبًا .. بل ومخيفًا أيضًا ..

وهتف به سنقر .. انت صاحي يا أخينا .. ولا نايم .. ولا عبيط ؟

فأجابه الرجل بابتسامته الساخرة ..

- وإيه الفرق يا أخ ؟!

ولاحظ سنقر أن الرجل لم يحول عينيه ولم يغير نظرته .. فسأله :

- انت كفيف يا عمنا ؟!

مكتبتنا
WWW.MAKTBTNABIS.COM

فأجابه الرجل بنفس الابتسامة الغامضة :

- وإيه الفرق يا أخ ؟!

فرقَّ قلب سنقر له .. وسأله :

- وتهمتك إيه .. جابوك هنا ليه ؟

قال الرجل .. وقد زادت ابتسامته انفراجًا :

- تهمتي إني كنت باتلصص على الحريم السلطاني .. بابص عليهم من خرم الباب ثم انفجر ضاحكًا .. وقال :

- لا تندهش .. فمعنا هنا في الزنزانة أبكم اتهموه بأنه كان يخطب في الجماهير ويهيِّجها على السلطان ويثير الشغب .. نام .. نام يا أخي .. فإذا كان نوم الظالم عبادة .. فنوم المظلوم هو الجنة بعينها ..

وألقى سنقر بجسده إلى الوراء مستندًا على جدار الزنزانة الرطب وأغلق عينيه .. وقرر أن يفعلها .. أن يهرب من هنا .. وشعر بفرحة عارمة تسري في جسده حينما داهمته فكرة الهروب .. إن المماليك بقوتهم وبطشهم وزنازينهم الكئيبة لا يستطيعون ، أن يمنعوا فكرة كهذه أن تولد في رأسه .. ولم يحاول سنقر أن يجهد عقله أو يزعج نفسه بالتفكير في خطة الهرب .. أو كيف سيخرج من هنا .. واكتفى بأن يستمتع بحلاوة الفكرة ذاتها سأهرب من هنا ولكن عقله الباطن حاول أن يمنطق الفكرة .. فالأفكار المستحيلة غالبًا ما تصطدم بالعقل

مكتبتنا
WWW.MAKTBTNABRIS.COM

الذي لا يقبل غالبًا إلا المنطق .. حتى في أحلك الظروف .. وهتف به عقله ساخرًا :

- تهرب من هنا .. كيف !! أعطني تصورًا لذلك .. كيف ستمر من كل هذه البوابات الحديدية والحرس المدججين بالسلاح .. منزوعي القلوب والضمائر ؟ حاول سنقر أن يقدم تصورًا منطقيًّا لعقله الباطن .. سيشتبك مثلاً في معركة مع الحراس .. وينهال عليهم بكلتا يديه سيوفهم لن تناله .. وخناجرهم ستطير وترشق في الجدران .. وحرابهم ودروعهم ستتكسر .. أما هو .. فسيستطيع بخفة ورشاقة أن ينفلت في كل مرة .. ألم يأت الموت مئات المرات واقترب منه حتى صار قاب قوسين أو أدنى منه .. ثم أخطأه ؟! وبعد المعركة الطاحنة التي سينتصر فيها .. سيمر بقدميه على أشلاء الجنود حتى يصل إلى البوابة الكبيرة .. سيرتجف الحارس الواقف بجوارها حينما يراه خوفًا من أن يلقى مصير زملائه .. وهنا سيصرخ فيه : افتح البوابة !!! وسيفتحها طبعًا .. وهل يجرؤ ألا يفتحها ؟! ليخرج منها سنقر .. فيرى الأرض الواسعة منبسطة أمامه .. ويأخذ نفسًا عميقًا .. ويبدأ حياته من جديد ..

ولأن العقل البشري لا يتفق مع روعة الخيال فقد اعترض عقله الباطن على منطقية خطة الهروب هذه ، وسخر من سنقر الذي لم يستسلم للإحباط .. وعاد بخياله إلى الزنزانة مرة أخرى مضطرًا

مكتبتنا
WWW.MAKTBTNABIS.COM

مجبرًا .. ليفكر في خطة جديدة .. آه .. سيحفر نفقًا تحت الأرض .. من الزنزانة إلى خارجها .. نفقًا طويلًا .. طويلًا .. سيحفره بأصابعه .. بأظافره .. إنه يستطيع أن يحفر كل يوم عشرة سنتيمترات .. سيحفر مترًا كل عشرة أيام .. في كل عام سيحفر 36 مترًا .. سيظل يحفر .. ويحفر .. حتى لو خرج من هنا بعد خمسين عامًا .. وشعر سنقر بالأمل يملؤه .. وعاد عقله يسخر مرة أخرى .. ومن أدراك أنك ستعيش خمسين عامًا .. وهل تظن أنهم طوال هذه السنوات لن يكتشفوا النفق !! والله لقد جننت يا سنقر ، قال سنقر لنفسه في زهق يا رب لماذا خلقتنا بعقول ؟!! إن عقولنا تشقينا .. تعذبنا ..

ثم عاد سنقر يتشبث بحبال الأمل مرة أخرى .. ماذا لو سخطني الله فأرًا ؟!! لن أحتاج إلى خطة للهروب . الفئران تمرح في الزنزانة وتروح وتجيء كما تشاء – لو صرت فأرًا .. لخرجت من هنا .. أمام الحراس وأمام الجميع .. ولن يعترضني أحد ..

المشكلة ليست في الهروب .. الفكرة موجودة ومستقرة في ذهني إن جسدي هو الذي يعوقني فقط .. آه يا رب .. لماذا خلقتنا بأجساد ؟! إن أجسادنا تشقينا تعذبنا .. لو لم يكن لي هذا الجسد الثقيل .. لطرت من هنا .. وانطلقت روحي بعيدًا .. بعيدًا .. وشعر سنقر أنه لم يعد يشعر بجسده .. صار خفيفًا جدًّا أخف من الريشة .. وأحس بأنه يرتفع تدريجيًّا عن الأرض .. ولم يعد يشعر بالجاذبية كانه سابحًا في

مكتبتنا
WWW.MAKTBTNABRIS.COM

الهواء .. طائرًا .. وتحسس قدميه فلم يجدها .. ولا ذراعيه .. ولا رأسه حاول عقله أن يتدخل هذه المرة .. ولكنه لم يستطع .. كان سنقر قد وصل إلى حالة صوفية محلقًا في ملكوت الله - سبحانه وتعالى - لم يعد يهمه .. السلطان حسام الدين لاجين .. ولم يعد يفكر حتى في نازك ولا في ابنه الذي في بطنها .. كان سنقر قد سلم أمره لله تمامًا .. ولم تعد حتى فكرة الهروب تسيطر على تفكيره .. سيظل هكذا طائرًا .. سابحًا في الهواء .. لابد أن الأمور ستتغير .. بعد عام أو عامين .. أو ألف عام ..

* * *

صارت حجرة السجن مظلمة إلا من ضوء القمر الذي انبعث ضوؤه من طاقة مفتوحة في أعلى الزنزانة .. متى فتحت هذه الطاقة ؟! وكيف دخل منها ضوء القمر ؟ لم يستطع سنقر أن يفسر ذلك ولم يعرف سنقر هل نام طوال اليوم أم ماذا حدث سوى أن قدمي الرجل ذي الشارب الغليظ كانت توقظه بعنف وهو يصرخ فيه :

- قوم.. قوم يا روح امك .. إنت جاي تنام هنا .. دي مش لوكاندة ياله .

فتح سنقر عينيه وتأمل المكان من حوله .. فوجد الزنزانة وقد تغيرت بعض الشيء .. ليس تغيرًا كبيرًا إنما .. ليست هي الزنزانة التي نام فيها .. قال سنقر لنفسه : هل نقلونا ونحن نائمون .

ووجد الرجل ذا الشارب الغليظ .. يرتدي أوفرول ميري كاكي .. ولا يرتدي عمامة الحرس ولا خوذة المماليك .. وخلفه جندي يرتدي

مكتبتنا
WWW.MAKTBTNA.COM

ملابس سوداء ملتصقة بجسده .. اندهش سنقر لملابسهما العجيبة .. وقام .. والحارس الضخم يدفعه أمامه .. خارجًا من الزنزانة وهو ينهال بيده على قفاه .

ما هذا !! كان سنقر ماشيًا في كوريدور والرجل ذو الشارب الغليظ يدفعه بعنف ويضربه ببوز حذائه في ظهره .. الكوريدور كان مفروشًا عليه سجادة حمراء طويلة تبدو رخيصة وفقيرة بالمقارنة بالسجاجيد الفاخرة التي رآها في قصر السلطان والأمراء .. كان الجنود يروحون ويجيئون بملابسهم السوداء .. والبنادق في أيديهم .. أين أنا الآن ؟ ذلك السؤال الذي كان يشغل بال سنقر وهو في هذا المكان الغريب الذي تقع عيناه عليه لأول مرة .. ثم وجد في نهاية الكوريدور بابًا أمامه قصرية عليها زهور .. فتحه الرجل ذو الشارب الغليظ .. ثم أعطى التحية العسكرية لرجل جالس على مكتب يرتدي رداءً غريبًا .. ويربط عنقه برباط طويل ينسدل على صدره فضحك سنقر مندهشًا .. وقال :

- إيه اللي لابسينه ده ؟! المماليك اتهبلوا ولا إيه ؟!

زجره الرجل ذو الشارب الغليظ وزغده في كتفه :

- بتضحك يا روح امك .. حاضر .. ح تضحك قوي دلوقتي .. الواد اللي مسكناه تحري يا باشا .

مكتبتنا
WWW.MAKTBTNA.COM

كان الرجل الذي ربط عنقه برباط طويل ينظر في أوراق أمامه فرفع رأسه ثم نظر نحو سنقر بضيق ، و قال له :

- تعالى ياله .. قرّب هنا .. إسمك إيه ياله ؟

قال سنقر بخضوع :

- سنقر يا مولاي .

صرخ فيه الظابط بغيظ :

- مولاي !!.. إحنا ح نستعبط ؟! إنت معاك بانجو ياله ؟!

فقال سنقر متأثرًا :

- بانجو !!. بانجو تعيش انت يا مولاي العمر الطويل ليك .

قام الظابط من على مكتبه وقد فقد أعصابه تمامًا وأمسك به من قفاه وقال له وهو يهزه بعنف :

- ياد اتكلم عدل أحسنلك .. وفوق بدال ما افوقك .

كان سنقر ينظر نحو صورة الرئيس المعلقة فوق مكتب الضابط مندهشًا للغاية .

- إنت بتبص على إيه ياله ؟! ما تفوق ياله ؟!

- مين ده يا مولاي ؟!

- ح تعمللي مجنون يا روح امك ؟!

- والله ما اعرف ..

مكتبتنا
WWW.MAKTBTNABBIS.COM

- مش عارف الريس يا بن الـ ... ده أنا ح اطلع .... أمك الليلادي .

قال سنقر مندهشًا :

- هو ده الريس يبأه ده السلطان ؟! يعني السلطان لاجين غار في داهية ؟! ونظر نحو صورة الرئيس بسعادة بالغة وهتف بحماس .. ربنا يخليه لينا .. ويديله الصحة ويطول لنا في عمره .. يعيش الريس .. يحيا الريس .. يسقط السلطان لاجين .. أتفووو ع السلطان لاجين .

وبينما سادت حالة من الذهول في مكتب الضابط ..

وسنقر يرقص ويتمايل يمينًا ويسارًا في سعادة غامرة أمام الجميع .

قال الصول :

- لا .. ده باين عليها هربانة منه يا باشا .. الواد ده مخه مفوت .. نبعته ع السراية الصفرا ونخلص من أمه .. ده أكيد مجنون .

قال سنقر :

- أنا مش مجنون يا باشا .. أنا عاقل قوي .. أنا فرحان بالسلطان الجديد .. هوه اللي يفرح بالسلطان الجديد يبأه مجنون .!!. ما طول عمرنا كده يا باشا .. نفرح بالسلطان الجديد ونلعن أبو أم اللي راح .

ودخل أحد المخبرين وهو يدفع أمامه امرأة ترتدى ملابس عصرية فاضحة .. بنطلون أحمر ضيق تمامًا التصق بجسدها بحيث إنك تشعر أنها لم ترتده .. بل لونت ساقيها بلونه الأحمر الفاقع .. وبلوزة بالكاد

مكتبتنا
WWW.MAKTBTNABBIS.COM

تخفي صدرها الفاخر .. وتظهر بطنها عاريًا .. كانت تتمايل في وقفتها فتتحرك كل هذه الأشياء في تناغم مثير وهي تقول للصول بخلاعة :

- إوعى كده ما تمدش إيدك عليا .. إنتوا ماسكينّي ليه ؟!

قال الصول :

- مسكناها في المركب يا باشا بترقص من غير ترخيص .

نظر سنقر نحوها مندهشًا ولم يصدق عينيه .. لم تكن المرأة إلا نازك .. ولكن ما الذي أتى بها إلى هنا ؟! وما هذا الذي ترتديه ؟! ولماذا لم تلق بنفسها في أحضاني حينما رأتني أمامها ؟ كانت كل هذه الأسئلة تدور في رأس سنقر الذي كاد يفقد عقله تمامًا .. وصرخ فيها بلهفة :

- نازك .. إيه اللي إنتي عاملاه ده انتي إيه اللي جابك إنتي سيبتي المركب ؟!

قال الضابط لسنقر :

- إنت تعرفها ياله ؟!

وجرى سنقر نحوها ملهوفًا .. مدافعًا عنها .

- دي مراتي يا باشا .. نازك .

وأحاطها بذراعيه وبكى وقال لها بين دموعه التي انهمرت من مقلتيه :

- الحمد لله إن أنا اتطمنت عليكي .. الحمد لله اني عشت وشفتك يا نازك .. أنا كنت خلاص فقدت الأمل .

مكتبتنا
WWW.MAKTBTNABIS.COM

فقال الضابط منفعلًا :

- إمشي ياد يابن المجنونة انت وهي ما اشوفش وشكوا هنا تاني .. ياللا .

خرج سنقر مع نازك من مكتب الضابط وهو يقول لها :

- عرفتي اللي حصل ؟! مش السلطان لاجين اتشال .. أصل انا ابن حلال يا نازك .. اللي ييجي على سنقر ما يكسبش .

أخذ الظابط يضرب كفًّا بكف .. وهو يقول للصول :

- الله يخرب بيت البانجو على اللي بدعه يا أخي .. العيال مخها اتمسح.

خرج سنقر من القسم ووقف ينظر إلى السيارات والزحام الشديد وقد فغر فاه من الدهشة .

فأمسك بنازك وسألها وهو يكاد يفقد عقله :

- هو إيه اللي حصل في البلد ؟! هي دي مصر يا نازك ؟!

فقالت نازك :

- باقولك إيه ؟! حركة وعملتها وجاريتك فيها عشان نخرج من القسم إطلع من نافوخي بأه .. ما تشتغلنيش .

- أطلع من نافوخك ؟! وابني !! إبني اللي في بطنك ؟!

- جك وجع في بطنك .

- أنا لا يمكن اسيبك .. بأه بعد كل ده عاوزه تسيبيني يا نازك ؟!

مكتبتنا
WWW.MAKTBTNA.COM

رن موبايل نازك بين ذهول سنقر الذي كاد يفقد عقله تمامًا وهو يراها وهي تخرج شيئًا من جيب البنطلون شيئًا صغيرًا .. تضعه على أذنها .. وتتكلم .. هل جنت نازك وصارت تكلم نفسها ؟! ماذا حدث لك يا نازك ؟! وما هذا الذي أراه أمامي .. كانت نازك ترد على الطالب بدلال :

- أيوة ياسم سم .. أنا قدام القسم .. لأ خلاص مفيش حاجة .. إنت فين ؟

وفجأة وقفت سيارة نزل منها حسام الدين لاجين مرتديًا جينز بلو .. وبودي ستريتش .. كان يبدو ثريًا أنيقًا والساعة الذهبية تلمع في يده وابتسم بثقة وغمز بعينيه لنازك .. وفتح لها السيارة لتركب بجواره وهي تضحك .. وانطلقت السيارة بها وسنقر يصرخ بلا انقطاع :

- نازك .. نازك .. نازك .

حتى غابت نازك عن عينيه تمامًا واختفت في الزحام بينما كان سنقر يحملق مذعورًا في المارة وهو يرى السيارات تروح وتجيء من أمامه ومن خلفه ورجال منكوتمر يملأون المدينة شاهرين أسلحتهم في حالة تأهب قصوى .. وقد توقفت الحركة تمامًا استعدادًا لمرور موكب أحد الأمراء المماليك .

يوسف معاطي